الإفـــــادة

بتحقيق

معنى العبادة

والرد على حاتم الشريف في مقاله:

العبادة: بوابة التوحيد وبوابة التكفير

كتبه

بدر بن علي بن طامي العتيبي

تجد في هذا الكتاب

بيان خطأ الكاتب حاتم الشريف وانحرافه، وقف فيه:

= على سوء فهمه لمعنى "التوحيد" و"الشرك" و"العبادة"

= وعلى جعله الشرك فقط في توحيد الربوبية.

= وعلى جعله توحيد الألوهية لا يكون فيه إلا حلال وحرام ولا يصل للشرك بذاته.

= وعلى تأثره بمذهب المرجئة في عدم التكفير إلا بمقارنة الاعتقاد مطلقاً.

= وعلى اتباع المتشابه وترك الآيات المحكمات في وصف شرك المشركين.

= وعلى غمزه في دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب.

= وعلى تأثره بمقالة غلاة الرافضة والصوفية في معنى العبادة.

= وعلى جهله في الحدِّ الفاصل الفارق بين العادة والعبادة.

= وعلى مغالطته بأن عامة أهل لا إله إلا الله لم يصدر منهم شرك في الربوبية!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

فقد دفع إليّ بعض المشايخ النبلاء، وأهل العلم الفضلاء؛ مقالاً لحاتم العوني الشريف المكتوب تحت عنوان: «**العبادة: بوابة التوحيد.. وبوابة التكفير**» ضمن منشورات مركز نماء للبحوث والدراسات، تكلَّم فيه عن معنى العبادة التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، وخلط في ذلك خلطاً عجيباً، وظهر بنتائج مريبة، يُلمس منها الطعن في الأوائل، وانتقاص فهومهم وعلومهم عن إدراك معنى العبادة! وذكر في مقدمة مقاله أن مقاله إنما هو خاتمة لبحث مطوّل في الباب! جاء نتيجة تأمل عميق وطويل! وسيظهر للقارئ الكريم أن تأمله تأمل المنبت! الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، ولو لزم حاتم فنّه ومجال تخصصه في «علم المصطلح ودراسة الأسانيد» لكان خيراً له[1]، ولكن المتابع له في سنيِّهِ الأخيرة يجده أخذ يتكلم في مسائل عدة من مسائل الاعتقاد، فخلط فيها وبدّل وحرّف! وقد كتبتُ عليه ردوداً عديدة في الصحف السعودية وشبكة الانترنت، **والرجل تعددت مخالفاته في مسائل الألوهية والصفات والإيمان والقدر والصحابة**، كما بينته مفصلاً في مقالي "وقفات مع عقيدة حاتم العوني" وهو منشور في مدونتي في الانترنت[2].

ومقاله المشار إليه يدور حول مسألة واحدة وهي تحقيق معنى العبادة، وضلّ في التنظير والنتيجة، فأخطأ في معنى العبادة الواجبة، ومن ثمَّ أخطأ في معنى الشرك وقصره على شرك الربوبية، ونتج عن ذلك إخراج الكثير من صور الشرك من كونها شركاً كما سيأتي في صريح

[1] مع ما عنده من خلط في فنّه أيضاً، وغلوّه في تحرر العقل حتى في (اصطلاح أهل العلم قبله) فناقض أصولاً، وأحدث فصولاً، وتكلم في فنِّه بالعجائب، فكيف بغير فنه؟

[2] http://badralitammi.blogspot.com/2013/03/45.html

قوله ومفهومه، وهذا بعينه أصل أهل الضلال من غلاة الصوفية والرافضة، والذي انبرى لهم فيه أهل التوحيد والسنة بالإيضاح والبيان في غالب مؤلفاتهم، كشيخ الإسلام ابن تيمية[1] وتلميذه ابن القيم[2] إلى الإمام محمد بن عبدالوهاب[3] وأبنائه وأحفاده وتلاميذه، وحققوا بذلك معنى التوحيد والواجب، والشرك الذي حرمه الله ورسولهﷺ، والعبادة التي من أجلها خلق الله الخلق.

والكاتب خلطَ في مقاله خلطاً عجيباً مع ركاكة الأسلوب، وفساد التركيب، وسوف أقف مع كلامه عدة وقفات، لعلها تكشف للناظر مواطن الخلال والانحراف في كلامه، والله ولي التوفيق.

---

(1) وأخص مؤلفاته في ذلك "الرد على البكري" و"قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" و"رسالة العبودية" و"الواسطة بين الحق والخلق".

(2) وأخص مؤلفاته في ذلك "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان" و"الشافية الكافية".

(3) وكلّ مؤلفات الإمام تدور حول تحقيق معنى (التوحيد) و(الشرك) و(تكفير المشركين) و(أحكامهم) وهذه أصول دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى، وأخص مؤلفاته في ذلك "القواعد الأربع" و"ثلاثة الأصول" و"كتاب التوحيد" و"مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد".

فصل

ذكر العوني أن مقاله خلاصة بحث مطوّل بعد تأمل عميق طويلٍ، وأنه قائم على «**البيان والاستدلال!**».

والناظر فيه يجده شبه عريٍّ من كلام أهل العلم، في مفاصل البحث ومهماته، وهذا ضعف في التحقيق والنظر، ومخالف لدعواه في «البيان والاستدلال» وليس الكتاب والسنة موكلين بفهوم كلِّ أحد، وإنما الرجوع في فهمهما إلى أصدق الناس فهوماً، وأسلمهم علوماً، وأعرفهم بمراد الله ومراد الرسولﷺ من الصحابة والتابعين ﷺ، وخاصة في أصول الدين، وقواعد الملة، ومع ذلك لم يأتِ صاحب المقال بشيء من كلام السلف، بل الأدهى والأمَرّ أن يتوهَّمَ ويُوهمَ (ص٢) أن معنى العبادة محل خلاف! يحتاج إلى: «**كتاب يفصل القول فيه، ويحصر المقالات التي كُتبت عنه، ويحاكم المناهج السابقة التي قامت عليه! ويبين وجوه الإصابة ووجوه الخلل فيها، ويجيب عن الاستدلالات الخاطئة! التي زلّت فيه**».

وهذا من عجيب القول! فإن كانت العبادة غاية خلق الخلق، ومهمة بعثة الرسل، وموجب إنزال الكتب، لم يُفصل القول فيها، وهي محل بحث ونظار، فأي شيء يُتفق عليه بعدها! ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ [إبراهيم: ١٠].

وسيأتي إن شاء الله كشف حقيقة مصدر فهم الكاتب! وأنه هو بعينه كلام الرافضو والصوفية من كتبهم، ولو أفصح وعزى لعرف الناس انحرافه عن السبيل.

ومنتهى كلام الكاتب ليس لتحرير معنى العبادة فقط، وإنما غايته تقليص معنى الشرك! فكما سيأتي أنه جعل للعبادة معنيين عام وخاص، فكلاهما عبادة، والفرق بينهما العمومية والخصوصية، ولكنه جعل الشرك في المعنى الخاص دون العام، وأن الشرك لا يكون إلا في مخالفة الخاص! أما المعنى العام المرادف للطاعة –حسب تقريره– لا يكون فيه الشرك! وإنما

هو بين الحلال والحرام! فقال (ص٤): «**ولذلك كان من أهم أنواع الخلل في باب التوحيد والشرك، هو: عدم تحرير معنى العبادة أصلاً، فمن لم يحرر معنى العبادة التي عنها يتحدث باب توحيد العبادة، أنّى له معرفة شرك العبادة؟!**».

ومراده دفع التكفير عن كثيرٍ ممن يصرفون أنواعاً من العبادة لغير الله تعالى، إذ إنه لا يرى أن صرفهم لتلك العبادات لغير الله لا يكون شركاً إلا باعتقاد الربوبية! وما دون ذلك فهو ما بين المشروع عنده كالغلو في محبة المخلوق! أو المحرم الذي لا يصل إلى الشرك كالسجود.

وسيأتي ما في هذا الكلام من سوء فهم نتج عن سوء المقدمة والتركيب.

فصل

تكلم الكاتب عن إطلاق العبادة وتعريف كل إطلاق، وجعل للعبادة إطلاقين:

إطلاق عام وخاص، وفسّر الإطلاق العام بـ: «**كل ما يؤجر عليه المؤمن**» وهو مرادف للطاعة من هذا الوجه، ومثّل له بكل ما يُتقرب لله تعالى به من العبادات كالصلاة والصيام، وسائر الأعمال الصالحة كالإحسان للخلق كبرّ الوالدين وصلة الرحم، ونحوه.

ونزَّل على هذا الإطلاق تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة بقوله: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة**»[1].

ثم قال: «**وهذا الإطلاق مع صحته بهذا المعنى العام إلا إنه ليس هو المعنى الذي يبيّن العبادة التي لا تصرف إلا لله! والتي يحصل بصرفها لغير الله تعالى الوقوع في الشرك!**».

وعلل ذلك بأن: «**بر الوالدين وإحسان التعامل مع الناس، قد يصدر بغير قصد القربى أصلاً، ومع ذلك لا يكون صاحبه آثماً ولا مشركاً..**».

وهذا الكلام منه فاسد:

لأن التوحيد -وهو المعنى الخاص للعبادة- يكون لله تعالى بـ: «القول أو الفعل أو القلب»، فبوجوده يؤجر، وبغيابه لا يؤجر، وكل مأمور به هو من التوحيد، سواء كان:

[٢] قولياً؛ كالذكر والدعاء والاستغاثة والاستعانة، ونحو ذلك، ومن صرف غير ذلك لغير الله تعالى صار مشركاً به، كقول النبيﷺ: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» ونحوه.

[٢] أو فعلياً؛ كالصلاة والصيام والذبح والنذر ونحوه، ومن صرف شيئاً من ذلك لغير الله كان مشركاً به، كقول النبيﷺ: «**من تعلق تميمة فقد أشرك**» ونحوه.

[٣] أو قلبياً؛ كسائر أعمال القلوب وأقوالها ومقاصدها، ومن المقاصد (حُسن النية) التي يؤجر بها (المتعبد) بالمباحات، وهو ما سماه الكاتب (القربى) وإن لم تكن بنية فلا أجر ولا

---

[1] "العبودية" (ص٤) "مجموع الفتاوى" (١٠/ ١٤٩-١٥٠).

وزر، وإن حسنت بها النية أجر صاحبها، وإن ساءت أثم، ومن سوء النيات في المباحات (الرياء والسمعة) بها، وهذا من الشرك، ومن ذلك ما مثّل به من: بر الوالدين وإحسان التعامل مع الناس، فإن صدرت بغير نية القربى والتعبد لم يؤجر، وإن صدرت بذلك أجر، وإن صدرت بنية (الرياء والسمعة) كان له نصيب من الشرك بغض النظر عن نوعه، فكيف يقول الكاتب بأنه لا يدخل فيها معنى الصرف لغير الله؟!

بل كل ما دخل تحت مسمى "العبادة" من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة يتحقق فيه معنى الصرف لغير الله، ومخالفة حقيقة (التعبد) بحسب نوع العبادة، وصورة وقوع الصرف لغير الله فيها كما تقدم بيانه.

فصل

قال الكاتب (ص٤): «**وهذا الإطلاق للعبادة مع صحته بهذا المعنى العام إلا أنه ليس هو المعنى الذي يبين العبادة التي لا تصرف إلا لله، والتي يحصل بصرفها لغير الله تعالى الوقوع في الشرك**».

وذلك لأنه يرى أن هذا المعنى العام بالمفهوم الذي اختاره -وهو: «**كل ما يؤجر عليه المؤمن**» وهو: «**كل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة**» والمرادف لمعنى كلمة «**الطاعة**» أن هذا كله- لا يبين معنى "توحيد العبادة" ويريد بها «**العبادة التي لابد من استحضار نية التعبد والتقرب**» و «**العبادة التي بصرفها لغير الله يكون صاحبها مشركاً**».

وهذا كله كلام مردود، لأن العبادة عبادتان:

[١] **عبادة قهرية**؛ يدخل فيها كل الخلق، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا**﴾ [مريم: ٩٣] وهذه صفة كل الخلق الموحد منهم والمشرك، فليست هي مطلوبة لوجودها أصلاً في كل من سوى الله.

[٢] **عبادة طلبية**؛ وهي التي يطلبها الله من عباده، فكل ما طلب الله من العباد فهو عبادة، ولو كان فعلاً عادياً في الأصل، إذا طلب الله القيام به فإنه يكون عبادة إن كان موجب القيام به الامتثال لأمر الله تعالى، ومن هذا الوجه عرّف الفخر إسماعيل أبو البقاء العبادة بقوله: «**العبادة ما أُمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**»[1].

فبما أن الله تعالى قد طلب الإتيان به له سبحانه وتعالى، فالقصد فيها له، وصرف القصد لغيره يخرج به عن معنى العبادة له إلى غيره فيكون شركاً بحسب نوع تلك العبادة كما تقدم.

[1] "التوضيح عن توحيد الخلاق" (ص ٣٤٦) "فتح المنان" (ص٤٤٢)

وقوله عن معنى العبادة: «**كل ما يؤجر به المؤمن**» والمراد به «الطاعة» ليس هو تعريفاً بدلالة اللفظ وإنما هو بأثره! وهذا قصور في التعريف، وذلك لأن المؤمن ما يؤجر إلا على ما فعله "تعبداً" سواء بـ:

[١] **ذاتية الفعل**، كالصلاة والصيام والحج والطواف والدعاء والرغبة والرهبة والاستغاثة ونحو ذلك، فيؤجر على قيامه بهذه الأفعال لله تعالى تعبداً وطاعة لأمره، ومن صرف شيئاً من هذه الأفعال لغير الله فقد أشرك.

[٢] **أو نية الفعل**، كسائر المباحات عندما تكون فيه النية الخالصة لله تعالى، فيؤجر على نيته تعبداً وقربى لله تعالى، ومن صرف هذه النية لغير الله (رياء وسمعةً) كان فيه من الشرك بحسبه، كما تقدم.

فالاشتراك بين العبادة بالذاتية وبالنية في مسمى "العبادة" لم يدفع وقوع الشرك في الحالين، وهذا يبطل قول الكاتب (ص٤): «**إذ بهذا التعريف – أي تعريفه! - للعبادة بمعناها العام يشترك الطعام والنوم بنية التقوي على الطاعة مع الصلاة والصيام في لفظٍ واحد، ولا شك أن هذا الاشتراك لا يمكن أن يكون صالحاً في تحرير شرك العبادة من توحيدها**».

ثم يقال: هب أن شرك العبادة لا يقع في الطعام والنوم وما لا يكون عبادة إلا بالنية، فإنه لا يدفع عن العبادات الذاتية التي أُمر الإنسان أن يقصد الله تعالى بها لا غيره، ومن جنس هذا ما مثّل به (ص٦) من: حب النبيﷺ، فإنه عبادة ذاتية، ومع ذلك لو تجاوز الإنسان في هذا الحب وغلا إلى حد صرف شيءٍ من أنواع العبادة له فإنه يكون بذلك شركاً محرما، ولا يشترط أن يعتقد حينها أنه الخالق المدبر المتصف بصفات الكمال المطلق، كما سيأتي إبطاله، إن شاء الله.

وعليه فتعبير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في قوله عن العبادة: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة**»[1]. أتم وأشمل.

قال الشيخ شمس الدين الأفغاني: «وهذا التعريف أحسن التعريفات كلها لفظاً ومعنى، وأشملها جمعاً ومنعاً، وأدقها طرداً وعكساً، وأوضحها كُلاً وجزءاً»[2].

وقوله رحمه الله: «**لكل ما يحبه الله ويرضاه**» يشمل الذاتي المأمور به، وما كان بالنية في عموم المباحات، لأن الله يحب نية القربى إليه.

---

[1] "العبودية" (ص٤) "مجموع الفتاوى" (١٠/ ١٤٩-١٥٠).

[2] "جهود علماء الحنفية في الرد على القبورية" (١/ ٣٢٠).

فصل

قال الكاتب (ص٥): «**ولا يمكن أن تكون العبادة بالمعنى الخاص لا لك ولا عليك، كما كان الحال في العبادة بمعناها العام، بل هي إما لك (بحسن النية واتباع الشرع) وإما عليك (بإخلال النية والشرع)** ... ».

وهذا إطلاق فاسد، لأن العبادات بالمعنى العام –كما تقدم – منها:

[١] **ما هو تعبدي بذاته**؛ فصورتها تعبدية محضةٌ، وعليها ينطبق قول من عرَّف العبادة بقوله: «**العبادة ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي**» كالصلاة والصيام والحج ونحوه، فتلك أعمال لا يفرضها الاطراد العرفي ولا الاقتضاء العقلي، ولا تفعل إلا تعبداً بأمرٍ شرعي، ولو لم يأمر بها الشرع فلا العرف يوجبها، ولا العقل يقتضيها، ومثل هذه العبادة لا تكون إلا (لك أو عليك) وبذلك يبطل إخراج العبادة بالمعنى العام من هذا القيد الذي ميّز به الخاص، وهو أنه إما أن يكون لك أو عليك.

[٢] **ومنها ما هو تعبدي بالإضافة إلى النية**؛ كسائر الأعمال العادية المباحة، فبالنية يُلحق بالعبادة، وهو متى لم يكن لا له ولا عليه لا يسمى عبادة، ويعود إلى حاله الأصل وهو (الإباحة) و(العادة) فلا يصح أن يقال أن ثمت (عبادة) لا لك ولا عليك! هذا جهل بلغة العرب في معنى العبادة، ومن هناك يتحقق الفرق بينها وبين الطاعة من حيث الأصل، لتحقق معنى الذل والخضوع في كل ما يسمى عبادة، بعكس الطاعة! فالطاعة قد تكون تعبدية، وقد تكون عادية، أما العبادة فلا تكون عادية مطلقاً، فكل عبادة طاعة لا العكس.

وهذا كله يوضح فساد استدلاله (ص٥-٦) بمسألة السجود والقيام والحب، فكل هذه الأمور منها ما هو عادي لا للمرء ولا عليه، ومتى انتقل إلى مرتبة التعبدية بوجود الذل والخضوع للمقصود بتلك الأمور العادية فإنه يكون بذلك شركاً بالله.

ومن جنس ذلك "التعظيم" فمنه ما هو يحمل المعنى العادي من الاحترام والاحتفاء ونحوه، ومنه ما يصل إلى الشرك بالله تعالى متى انتقل التعظيم إلى: الذل والخضوع فإنه يكون بذلك شركاً.

قال الإمام ابن عبدالهادي في تعليقه على قول السبكي: «إن المبالغة في تعظيمه واجبة» فقال: «أيريد بها المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من يشاء، فدعوى وجوب المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين.

أم يريد بها التعظيم الذي شرعه الله ورسوله ﷺ من وجوب محبته وطاعته ومعرفة حقوقه وتصديق أخباره، وتقديم كلامه على كلام غيره ومخالفة غيره لموافقته ولوازم ذلك، فهذا التعظيم لا يتم الإيمان إلا به»[1].

وعلى هذا فقول الكاتب (ص٦): «**فحب النبيﷺ مهما عظم فهو زيادة إيمان، حتى يحبه لكونه الخالق! أو المالك، أو المدبر، أو المتصف بصفات الكمال المطلق، فعندها يكون حبك هذا شركاً**».

وهذا القول من الكاتب شبيه بما انتقده ابن عبدالهادي، ومن جنسه قول صاحب البردة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم!

أي بالغ في تعظيم رسول اللهﷺ بالقول إلا أن تقول فيه مقالة النصارى بأنه ابن الله، وكذلك الكاتب، يقول: قل ما شئت فيه إلا أن تصفه بصفات الربوبية! فماذا عساه أن يقول عن صاحب البردة! وهو يصف النبيﷺ بتمام الملك للدنيا والآخرة مضاهاة بالله تعالى؟

---

[1] الصارم المنكي في الرد على السبكي (ص: ٣٤٦)

فإن من جـــودك الدنيـــا وضرّتها ومـــن علومكِ علم اللوح والقلمِ!

وكذلك كلامه (ص٧) عن السجود، وهو في ديننا صار عبادة محضة لله تعالى، وإن كان في الشرائع السابقة ليس عبادة، فالأنبياء يتفقون على أصل التوحيد، ولكن يختلفون في الشرائع، فمتى صار العمل شريعة وعبادة يتقرب به لله تعالى صار صرفه لغير من الشرك، ومن ذلك السجود، والله تعالى يقول: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [فصلت: ٣٧] فدل على أن السجود عبادة لا تكون إلا لله تعالى.

فصل

قال الكاتب في بيان المعنى الخاص والذي قال عنه: «**سينفعنا في باب تحرير الفرق بين توحيد العبادة وشركها**» فقال (ص٥): «**فالعبادة بمعناها الخاص؛ هي تعظيم الذي بيده الخلق والملك أو التدبير أو المتصف بالكمال المطلق، أو قل: تعظيمك بالحب والخوف والرجاء المتصف بشيء من خصائص الربوبية**».

فقوله في التعريف الأول: «**العبادة بمعناها الخاص؛ هي تعظيم الذي بيده الخلق والملك أو التدبير أو المتصف بالكمال المطلق**».

وهذا تعريفٌ يفسده المفهوم اللازم، وهو أن من صرف شيئاً من العبادة إلى من لا يعتقد فيه الخلق والملك والتدبير أنه لا يكون عابداً له ولا يكون بذلك مشركاً كما قال (ص٨): «**فالسجود لغير الله محرم، لكنه لا يكون شركاً إلا إذا قُصد به تعظيم المتصف بشيءٍ من خصائص الربوبية!**».

وقال (ص٨): «**فلا تكون عبادة إلا إذا كانت على وجه صرف شيءٍ من خصائص الربوبية لهذا الذي قمت له أو سجدت!!**».

وهذا عين دين المشركين، والذي ينافح عنه الرافضة وغلاة المتصوفة في العصور المتأخرة، فيزعمون أن الرجل لا يكفر بصرف شيءٍ من أنواع العبادة حتى يعتقد في معبوده صفات الربوبية! وهذا باطل بنص القرآن والسنة وإجماع المسلمين، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١] وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ**

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ – ٨٩] وقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ – ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فالله أصدق وأقوم قيلاً من زيف حاتم الشريف، فقد ذكر الله أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ واستحل دماءهم يقرون بانفراد الله تعالى بـ:

[١] الرِّزقِ. [٢] وملكِ السمع والأبصار.

[٣] وإخراجِ الحي من الميت، والميت من الحي. [٤] وتدبيرِ الأمور.

[٥] وإنجائِهم من الكروب. [٦] وإجابةِ دعاء المضطرين.

[٧] وربوبيةِ السموات والأرض وتدبيرهما. [٨] وربوبيةِ العرش، وملكه.

[٩] وملكوتِ كلِّ شيء. [١٠] وأنه يجير ولا يجار عليه.

[١٢] وخلقِ السموات والأرض ومن فيها. [١٣] والإحياء والإماتة.

[١٤] وإنزالِ المطر. [١٥] وكشفِ الضرِّ وجلب النفع.

بل ويقرون بانفراد الله تعالى بحق القصد والطلب من الدعاء والاستغاثة، وأن آلهتهم لا تنفعهم بشيء في وقت الشدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣- ٦٤] وقال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥، ٦٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

كلّ ذلك واضحٌ في الآيات السابقات بأن المشركين لا ينكرون انفراد الله تعالى بصفات الربوبية، بل ولا بحق القصد والطلب في وقت الشدة، كما هو صريح القرآن الكريم فيما ذُكر من الآيات، **فإن كان المشرك لا يكون مشركاً إلا بإضافة التأثير والتصرف والتدبير إلى معبوده فمن أين أتى الشرك إلى هؤلاء، وهو يقرون بأن الله تعالى هو الخالق المتصرف المدبر؟**

وقد خلط الكاتب في آخر بحثه في تصور شرك المشركين خلطاً عظيماً خالف به أصل التوحيد، وصريح القرآن، وتاريخ العرب لمن لديه أدنى معرفة به، وقرر (ص٩) أنه شركهم إنما كان في اعتقاد:

[١] الاستقلالية بخصائص الربوبية من دون الله.

[٢] أو اعتقاد وجود من ينازع الله تعالى في خصائصه.

ويرى بأن شرك مشركي العرب إنما هو من هذا النوع الذي غفل عنه كثير من الباحثين (ص٩) حتى جاء هو بتحقيقه.

ويرى أن من أخرج شرك العرب عن هذين النوعين فقد أخطأ وجاء بما لا تقبله العقول!! فقال (ص١٢): «**فمن ظن أن شرك العرب كان خارجاً عن إحدى هاتين الصورتين فقد أخطأ خطأ عظيماً، وأتى بشيء لا يمكن أن تقبله العقول**».

وزعم أن «**اعتقاد وجود من ينازع الخالق المالك المدبر خلقه أو ملكه أو تدبيره بغير رضاه وإذنه التام**(١)**، أو ينتقص إرادته التامة في شيء من ذلك**» وذكر أنه هذا (ص١٠): «**كتصور كثير من عرب الجاهلية من الله وإن كان عندهم هو الخالق الرازق المدبر ... لكنهم مع ذلك يتصورون أن لآلهتهم قدرة في التأثير على أمر هذا الرب، فحال آلهة عرب الجاهلية مع الله تعالى في تصورهم الشركي الباطل: أنهم كوزراء ملك، الملك للملك لكن لوزرائه سلطات واسعة وأوامر نافذة لا يستطيع**(٢) **الملك نفسه ولو في بعض الأحيان أن يرد عليهم أمرهم، فهم وإن كانوا تحت ملك هذا الملك لكن لهم أثراً قوياً في تصريف المملكة والملك مضطر لأن يلبي لهم طلباتهم..** ».

ويقول (ص١٢): «**لقد كان العربي يتوجه للآلهة المزعومة على معنى أن لها تصرفاً في الكون وتأثيراً على أمر الله**».

---

(١) انظر التعليق التالي.

(٢) قال هذا لما هو عليه من مذهب فاسد من أن الشرك لا يكون شركاً إلا إذا اعتقد الاستقلالية أو المنازعة لغير الله! بمعنى أن من دعا غير الله واعتقد أنه يحيي ويميت ويتصرف الكون تبعاً لما أجراه الله على يده في اعتقادهم من غير اعتقاد أن ذلك منه قدرة استقلالية أن هذا مشروع ولا يعد من الشرك، وهذا تقريره (ص٩) وقال (ص١٠): «أما التصرف والتدبير تحت ملك الله تعالى الكامل وبإذنه عز وجل فلا يعارض التوحيد، وليس اعتقاده مما يصرف شيئاً من خصائص الربوبية لغير الله تعالى..».

وهذا كلام جاهلٍ بلسان العرب وشركهم، ومعرضٍ عما حكى الله عنهم، فيما تقدم ذكره، وإلا فأين دعوى أنهم يعتقدون في آلهتهم شيئاً من خصائص الإلهية عما رواه الإمام البخاري في "صحيحه" عن أبي رجاء العطاردي -وقد أدرك الجاهلية والإسلام بعد موت النبيﷺ- حيث قال: «**كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه، ثم طفنا به**»[1].

وما وقع هذا وأمثاله في هذا الفهم إلا بجهلهم بما عليه أهل الجاهلية الأولى من الشرك، وصورته التي حذرنا الله منها، كما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**إن مما ينقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية الأولى**» فما كان العرب يظنون أن تلك الصخور المنحوتة بأيديهم تنازع الله في ملكه وسلطانه وقدرته وتدبيره، ولا أنها تستقل بشيء من ذلك، وإنما يعتقدون أنهم وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ الآية [الزمر: ٣].

وتسمية الله تعالى تلك الوساطة وطلب الشفاعة والقربى (عبادة) وذلك بما يقدمون لتلك الآلهة من (الدعاء) و(الذبح) و(النذر) و(الطواف) وهذا هو شركهم كما قال تعالى: ﴿**إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا**﴾ [النساء: ١١٧] وقال تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ**

[1] صحيح البخاري (٥/ ١٧١).

بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤] وقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾** [النحل: ٢٠، ٢١] وقال تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾** [الحج: ٦٢] وقال تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [غافر: ٢٠] وقال تعالى: **﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾** [فصلت: ٤٨] فسمى الله عبادتهم لآلهتهم دعاء، وليس كما زعم الكاتب بأنه اعتقاد خصائص الربوبية فيهم استقلالا أو منازعة لله.

ويقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام : **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾** [الشعراء: ٦٩ - ٧٤].

وتأمل كيف فسر عبادتهم من قوله: **﴿تَعْبُدُونَ﴾** بمفهوم ما جاء بعد ذلك من دعائهم لهم في قوله: **﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾** وجواب السؤال مفهوم بعدم السماع وعدم النفع والضر، وليس في فعلهم ولا قولهم ما يدل على أنهم نسبوا إليهم شيئاً من خصائص الربوبية بل نفوا ذلك من جلب النفع ودفع الضر، ومع ذلك سمى الله هذا منهم (عبادة).

ومثل هذا قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾** [الأنعام: ٥٦] وكيف سمى دعاءهم في آخر الآية عبادة لهم من دون الله.

ويقول تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾** [الأحقاف: ٥ - ٦] فسمى الله تعالى الدعاء في أول الآية عبادة في آخرها، فدل على أن الدعاء عبادة، وأن صرفه لغير الله شركٌ وكفر فليس في الوجود أضل من الكافر المشرك.

ويقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ**﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] فسمى دعاء غير الله تعالى في أول الآية شركاً في آخرها، فدلّ على أن الدعاء عبادة لا تكون إلا لله.

ويقول الله تعالى: ﴿**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٦، ٨٧] وفي هذه الآية الواضحة الفاضحة لعقيدة عباد القبور والأولياء، والناقضة لفهم الكاتب! دليل على أن الكفار إنما طلبوا من آلهتهم الشفاعة عند الله (المشفوع عنده) ولم يعتقدوا فيهم غير ذلك من التصرف والتدبير والخلق والرزق، ولذا قال تعالى بعدها: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [الزخرف: ٨٧] فهم لا ينكرون ربوبية الله ولا ينازعون فيها، ولا يعتقدون أن أحداً يوصف بخصائص الربوبية لا استقلالا ولا منازعة، وإنما يطلبون منها (الشفاعة) فهل بعد هذا البيان أتم من بيان؟ حتى يأتي هذا الكاتب المفتون! ويصف هذا المعنى بالبطلان يظنونه وتخرصاته وتخبطاته، ويقول: «**وأما الإصرار على فهم قوله تعالى: على أن شرك عرب الجاهلية كان شركاً في العبادة، دون أن يكون شركهم هذا متضمناً إخلال الربوبية فهو إصرار على باطل، لا يقوم على فهم حقيقة العبادة، والتي لا تكون عبادة إلا على صرف شيء من خصائص الربوبية للمعبود!**».

والباطل من فيه خرج، وعلى لسانه درج، وهو ومن على شاكلته أجهل الناس بحقيقة العبادة والتوحيد، ولم يفهم منها إلا ما فهمه المشركون وغلاة الصوفية في العصور المتأخرة.

يقول الشيخ عبداللطيف في بيان اعتقاد المشركين في دعوة الرسل بأنهم: «**إنّما جاءوا بتحريم الشرك في الربوبية، ووجوب اعتقاد اختصاصه تعالى بالملك والتدبير، كما صرَّح به كثير من عباد القبور، وأنكروا توحيد العبادة غاية الإنكار، وجعلوا معنى كلمة الإخلاص**

يرجع إلى توحيد الربوبية فقط، ومن نهاهم عن عبادة غير الله قابلوه بأشد الإنكار؛ وقالوا: تنقصت المشايخ والكبار، وهم قد تنقصوا الملك الحق العزيز الغفار»(١).

وهذا الكاتب جاء بمثل ما جاء به المبطلون! حيث قصروا الشرك على اعتقاد التأثير والتدبير والملك والتصرف في غير الله، وقالوا: «**الذي يقدح في التوحيد هو اعتقاد التأثير لغير الله، أو اعتقاد الألوهية والعبادة لغير الله، أما مجرد النداء من غير اعتقاد شيء من ذلك فلا ضرر فيه**»(٢).

وقال القضاعي الصوفي الحنفي: «**كل ما يدل على التعظيم لا يكون من العبادة إلا إذا اقترن به اعتقاد الربوبية لذلك المعظم، أو صفة من صفاتها الخاصة بها**»(٣).

وقالوا: «**الشرك والعبادة لا يتحققان إلا باعتقاد الربوبية لغيره تعالى، والاستقلال! بالنفع والضر، والإيجاد والخلق، ونفوذ المشيئة لا محالة، والتأثيرات بالذات دون الحاجة إلى الغير**»(٤).

وأن: «**الذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله، أو اعتقاد التأثير لغير الله**»(٥).

ويقول عدو الله الخميني! في تفسير معنى الشرك أنه: «**طلب شيء من أحدٍ غير الله باعتبار أنه رب، وما عدا ذلك فليس شركاً**»(٦).

---

(١) مصباح الظلام (٢/ ٣١٩).

(٢) ينظر "الدرر السنية" لزيني دحلان (ص٣٥) و"شواهد الحق" للنبهاني (ص١٥٠) و"مفاهيم يجب أن تصحح" للمالكي (ص٢١-٢٥، ٩٥).

(٣) ينظر "البراهين" (٣٨٠-٣٨١) "الفرقان" (١١١-١١٣) "براءة الأشعريين" (ص٩٣) بواسطة "جهود الحنفية في إبطال عقائد القبورية" (١/ ٢٩٢).

(٤) ينظر "شفاء السقام" للسبكي و"نفحات القرب" للحموي (ص٢١٧-٢١٨) و"كشف النقاب" للنقوي، و"كشف الارتياب" للعاملي (ص٢٧٤) و"البراهين الساطعة" للقضاعي (ص٣٨٢-٣٨٤، ٣٩٠) و"مفاهيم يجب أن تصحح" للمالكي (ص٢٥، ١٠٣-١٠٥).

(٥) "الدرر السنية" لزيني دحلان (ص٣٤).

(٦) "كشف الأسرار" (ص٣٠).

ويقول محمد علوي مالكي: «**والأمر الجامع في ذلك أن من أشرك مع الله جل جلاله غيره في الاختراع والتأثير فهو مشرك، سواء كان الملحوظ معه جماداً أو آدمياً نبياً أو غيره أو ملكاً أو جناً أو عملاً عمله، ومن اعتقد السببية في شيءٍ من ذلك اطردت أو لم تطرد، فجعل الله تعالى سبباً لحصول مسبباتها، وأن الفاعل هو الله وحده لا شريك له فهو مؤمن..** »[1].

وهذا القول من أشهر مقالات المتأخرين الفاسدة في تحرير معنى "التوحيد" و"الشرك" ومرجع الخطأ فيه إلى الخطأ في تحرير معنى "الإله" وكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" ومحل العمل من الإيمان، فقصروا التوحيد الواجب على توحيد الربوبية، ولم يخرجوا بمعنى الإله عن الرب المالك المدبر المتصرف في الكون، ولم يعرفوا من الشرك إلا (اعتقاد) صفات الربوبية في غير الله، وطلب خصائص الربوبية من غير الله مع اعتقاد انفراد الله بخصائص الربوبية كل ذلك من باب المجاز، ونسبة الأفعال إلى المخلوق مجازاً وأن الفاعل الحقيقي هو الله، **فقولهم مزيج بين الإرجاء والجبر والوثنية**[2] **﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾** [النور: ٤٠].

تتمة مهمة:

يقال لهذا الكاتب ومن قال بقوله: وإن قيل بأن الشرك لا يكون الا باعتقاد شيءٍ من خصائص الربوبية فيمن يقصدون، فيقال: من أعظم خصائص الربوبية «**أحقية الألوهية**» فاستحقاق الألوهية من خصائص الربوبية التي لا يجوز أن تكون لغير الله، فكل من تألَّه لغير الله بعبادة من العبادات فقد جعله شريكاً لله تعالى في خصيصة من خصائص ربوبيته وهي: «**الإلهية الحقة**» كما قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** [البقرة: ٢١] فأعظم خصائص الرب الخالق: استحقاقه للعبادة

---

[1] "مفاهيم يجب أن تصحح" (ص٩٦).

[2] ينظر لمزيد الفائدة "حقيقة التوحيد" لعبدالرحيم السلمي (ص٤٤٩) وما بعدها.

والتأله له وحده، وقال تعالى: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ [الدخان: ٨] فكما من خصائص الربوبية: الانفراد بالملك والخلق والرِّزق والإحياء والإماتة، فكذلك من خصائصها «**الانفراد بالألوهية**» فهو الإله الحق وما سواه مألوه باطل، كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الحج: ٦] وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [الحج: ٦٢] وقال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾ [لقمان: ٣٠] وهذا واضح ولله الحمد.

فصل

وحاول الكاتب أن يجيب عن قول الله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزمر: ٣] فتكلم بكلام يكشف عن سوء فهمه لمراد الله ولسان العرب، فقال: (ص١٢): «**ولقد كان العرب أعرف الناس بما تعنيه كلمة "العبادة" ولذلك قالوا: ﴿مَا نَعبُدُهم﴾ ولم يقولوا عبارة أخرى كـ(نطلبهم) أو حتى (نعظمهم) لأن (الطلب) و(التعظيم) لفظان لا يبينان حقيقة العبادة، ويشتركان في صحة التعبير بهما مع المخلوق والخالق..**» ثم عاد إلى أصله السابق في أن هذا التعظيم لا يكون شركاً إلا إذا اعتقد أن المعظّم عنده يمتلك شيئاً من خصائص الربوبية فقال (ص١٣): «**إلا بأن يكون المقصود بالعمل التقرب لمن يعتقد العامل فيه أنه يمتلك شيئاً من خصائص الربوبية**».

وهذا تلاعب بمفهوم النصوص، فتقييده بالملكية والاستقلالية أو المنازعة باطل، فهو وإن كان هذا الاعتقاد شركاً، فإنه ليس هو القيد، لوقوع الشرك من أقوام صرفوا أنواعاً من العبادة لآلهتهم وهم لا يعتقدون ذلك في آلهتهم كما تقدم، وإنما وصفوا بالشرك وعبادة غير الله تعالى (**لطلبهم**) الوساطة والشفاعة والقربى إلى الله عن طريقهم، والغلو في (**تعظيمهم**) بصرف أنواع العبادة لهم من الذبح والنذر والطواف ونحوه.

قال الشهرستاني عن بدء الشرك في العرب: «وأول من وضع فيه الأصنام عمرو بن لحي ابن غالوثة بن عمرو بن عامر لما سار قومه إلى مكة، واستولى على أمر البيت، ثم صار إلى مدينة البلقاء بالشام فرأى هناك قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها، فقالوا: هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص البشرية نستنصر بها فننصر، ونستسقي بها فنسقي، ونستشفى بها فنشفى، فأعجبه ذلك وطلب منهم صنما من أصنامهم فدفعوا إليه

"هبل" فسار به إلى مكة ووضعه في الكعبة، وكان معه أساف، ونائلة على شكل زوجين. فدعا الناس إلى تعظيمها، والتقرب إليها، والتوسل بها إلى الله تعالى»[1].

وتحذلقه بتعبير المشركين عن حالهم بمسمى العبادة ولم يذكروا الطلب، لا ينفع ولا يفيد، فقد سُمي عبادة في مواطن أخرى كما تقدم من قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء: ٦٩ - ٧٤] والطلب والدعاء معناهما واحد.

كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣] فالداعي طالب، والمدعو مطلوب، وضعف الطالب والمطلوب في دين المشركين.

ومثله هذا قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٦] وكيف سمى دعاءهم في آخر الآية عبادة لهم من دون الله.

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠].

فإخراج الدعاء والطلب عن معنى العبادة كلياً جهل من الكاتب كأسلافه، ولكن الصحيح إبقاؤه من أنواع العبادة، ثم يميز عن دعاء العادة، وطلب العادة، وتعظيم العادة، واستغاثة العادة، واستعاذة العادة، وطاعة العادة، ومحبة العادة، ونحوه مما لا يصل بالإنسان إلى الشرك، والذي يصل به إلى الشرك في العبادة هو المعنى المرادف للغة العرب، وهو ما تحقق في: «**الذل والخضوع والانقياد**» وكمال: «**الخوف والرجاء والمحبة**».

---

[1] "الملل والنحل" (٣/ ٧٧- ٧٨).

والذل والخضوع والانقياد والخوف والرجاء والمحبة من عمل المكلف، وهذا ما سماه العلماء «**شرك العبادة**» أما مجرد اعتقاد بعض خصائص الربوبية في المخلوق فهو من «**الشرك في الربوبية**».

فالمعرَّف -بفتح الراء- لابد أن يَظهر ما يدل على أصل معناه اللغوي في تعريفه، وأعمال العباد وأقوالهم هي «العبادات» كما سبق في التعريف الجامع المانع في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنها: «**اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة**»[1] وتقدمهم بها لله تعالى يسمى «عبادة» و«تعبداً» لما فيه من الذل والخضوع لله والانقياد لأمره، وكل هذه المعاني داخلة في معنى «عَبَدَ» في اللغة.

قال الأزهري في "تهذيبه" : «وَمعنى الْعِبَادَة فِي اللُّغَة: **الطَّاعَة مَعَ الخضوع**»[2].

وفي "المخصص": «أصل الْعِبَادَة فِي اللُّغَة التّذليل من قَوْلهم: طَرِيق مُعَبَّد: أَي مُذّلَّل، بِكَثْرَة الْوَطْء، وَالْعِبَادَة والخضوع والتّذلل والاستكانة قرائب فِي الْمعَانِي، يُقَال: تَعَبَّد فلَان لفُلَان: إِذا تذلل لَهُ، **وكل خضوع لَيْسَ فَوْقه خضوع فَهُوَ عبَادَة، طَاعَة كَانَ للمعبود أَو غير طَاعَة، وكل طَاعَة لله على جِهَة الخضوع والتّذلل فَهِيَ عبَادَة**، وَالْعِبَادَة نوع من الخضوع لَا يسْتَحقّهُ إلاّ الْمُنعِم بِأَعْلَى أَجنَاس النّعم كالحياة والفهم والسّمع وَالْبَصَر والشّكر»[3].

وتأمل قوله: «**وكل خضوع لَيْسَ فَوْقه خضوع فَهُوَ عبَادَة، طَاعَة كَانَ للمعبود أَو غير طَاعَة**».

وفي "لسان العرب": «أَصل العُبودِيَّة الخُضوع والتذلُّل»[4].

---

[1] "العبودية" (ص٤) "مجموع الفتاوى" (١٠/ ١٤٩-١٥٠).

[2] "تهذيب اللغة" (٢/ ١٣٨).

[3] "المخصص" (٤/ ٦٢).

[4] "لسان العرب" (٣/ ٢٧١)

وفي "المصباح المنير": «عَبَدْتُ اللهَّ أَعْبُدُهُ **عِبَادَةً وَهِيَ الِانْقِيَادُ وَالْخُضُوعُ**، وَالْفَاعِلُ عَابِدٌ، وَالْجَمْعُ عُبَّادٌ وَعَبَدَةٌ، مِثْلُ كَافِرٍ وَكُفَّارٍ وَكَفَرَةٍ، ثُمَّ اُسْتُعْمِلَ فِيمَنْ **اتَّخَذَ إلَهًا غَيْرَ اللهَّ وَتَقَرَّبَ إلَيْهِ** فَقِيلَ عَابِدُ الْوَثَنِ وَالشَّمْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»(1).

ومنشأ الضلال عند هذا الكاتب وعند غيره: عدم التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، ونتج عنه عدم التفريق بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية، وعندما فسروا الإله بالرب الخالق، ورأوا أن معنى لا إله إلا الله مجرد توحيد الربوبية والقدرة على الاختراع! لم يكن عندهم من الشرك شيءٌ إلا ما كان فيه شيء من شرك الربوبية!

وفرق بين الشرك في الربوبية والشرك في العبادة والألوهية، فمجرد اعتقاد شيء من خصائص الربوبية في غير الله لا يسمى شركاً في العبادة، وإنما هو شرك في الربوبية، فإن جاء معه صرف شيء من أنواع العبادة له صار شركاً في الألوهية، كالنصارى الذي أشركوا بالله في ربوبيته ونسبوا له الصاحبة والولد، ثم صرفوا لعيسى بن مريم عليه السلام وأمه والصليب أنواعاً من العبادة فأشركوا في الألوهية، وكالمجوس الذين يعتقدون تعدد الرب هذا منهم شرك في الربوبية، ثم ما يقومون به من عبادة النار وتعظيمها هذا منهم شرك في الألوهية.

قال المقريزي (ت:٨٤٥هـ) في "تجريد التوحيد" : «وشرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلهيّة، وشرك في الربوبيّة:

فالشرك في الإلهيّة والعبادة: هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عبّاد الأصنام، وعبّاد الملائكة، وعبّاد الجنّ، وعبّاد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهَّ زُلْفَى**﴾ [الزمر:٣] ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة، كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته.

(1) "المصباح المنير" (٢/ ٣٨٩).

والكتب الإلهيّة كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وتردّه، وتقبّح أهله، وتنص على أنهم أعداء الله - تعالى -، وجميع الرسل - صلوات الله عليهم - متفقون على ذلك، من أولهم إلى آخرهم، وما أهلك الله - تعالى - " من أهلك " من الأمم إلاّ بسبب هذا الشرك، ومن أجله. وأصله: الشرك في محبّة الله، قال تعالى: ﴿**يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾ [البقرة:١٦٥] فأخبر سبحانه وتعالى أنه من أحبّ مع الله شيئًا غيره كما يحبّه فقد اتّخذ ندًّا من دونه. وهذا على أصح القولين في الآية: أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾ [الأنعام:١] والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة، فيسوون بينه وبين غيره في الحبّ والعبادة. وكذلك قول المشركين في النار لأصنامهم: ﴿**تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨] ومعلوم قطعًا أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله في كونه ربّهم وخالقهم، فإنهم كانوا كما أخبر الله عنهم مقرّين بأن الله - تعالى - وحده هو ربّهم وخالقهم، وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه ربّ السّموات السّبع وربّ العرش العظيم، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي بيده ملكوت كل شيءٍ، وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله - تعالى - في المحبّة والعبادة، فمن أحبّ غير الله - تعالى - وخافه ورجاه، وذلّ له كما يحبّ الله - تعالى - ويخافه ويرجوه؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير الله آثر عنده وأحبّ إليه، وأخوف عنده، وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله؟ فإذا كان المسوّي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا، فما الظن بهذا؟، فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التّوحيد والإسلام كانسلاخ الحيّة من قشرها، وهو يظن أنه مسلم موحّد، فهذا أحد أنواع الشرك»[1].

وقال: «الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

---

[1] "تجريد التوحيد المفيد" (ص: ١٤-١٥).

وشرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه وتعالى لا شريك له في ذاته ولا في صفاته»[1].

فلا تلازم بين الشرك في الألوهية والشرك في الربوبية، وإن كان يجمعهما مسمى الشرك.

وكلٌ من توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية هما رأس العبادات، ويجمعهما اسم التوحيد، ولكن كما قال السُّدي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]: «من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك»[2].

وقفة:

ألا يرى هذا الكاتب أن الله تعالى أخبرنا بأنهم يتقربون **بآلهتهم** إلى **الله** زلفى؟ وهذا اعتراف لله بالربوبية، ثم من دون هذا الرب الخالق الرازق المدبر المحيي المميت لهم أكثر من آلهة! هم وسائطهم إليه، كما عبر عن ذلك بصيغة الجمع ﴿**نَعْبُدُهُمْ**﴾ وكذلك قوله تعالى عنهم: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [ص: ٥] فعبدوا اللات والعزى ومناة وهبل ويساف ونائلة ووداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا، وغيرها من الأوثان.

فالنبيﷺ وإياهم يقرون لله بالربوبية، وإنما خالفهم وخالفوه في تعدد الإله، هو يدعوهم إلى إله واحد، وهو: ذاك الرب الذي يقرون بأنه الخالق الرازق مدبر السماء والأرض، والذي يلزمهم في أكثر من آية بعبادته، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١-٢٢] أي تعلمون أنه من خلقكم وجعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء

---

[1] "تجريد التوحيد المفيد" (ص ٢٤).

[2] تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٥)

وأنزل من السماء ماء بأن لا يُدعى ولا يُذبح ولا يُنذر ولا يُصرف شيءٌ من أنواع العبادة لغيره.

وهم يخالفونه في هذه الأمور، ويصرفونها لغير الله تقرباً إلى الله وزلفى إليه، ومع ذلك كفرهم الله تعالى وأحل دماءهم وأموالهم، وهذا عين ما يفعله المشركون في العصور المتأخرة من صرف كثيرٍ من أنواع العبادة لأولياء والصالحين يريدون بذلك القربى إلى الله.

فصل

وأوهم الكاتبُ القارئَ أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوافقه على قوله! فقال (ص١٣) بعدما قرر أصله الفاسد بأن الشرك لا يكون إلا في اعتقاد امتلاك معبودهم شيئاً من خصائص الربوبية!: «**ويقرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول: «فهو سبحانه يبين أنه المستحق للعبادة، دون ما يُعبد من دونه، وأنه لا مثل له، وبين ما اختص به من صفات الكمال، وانتفاءها عما يُعبد من دونه، ويبين أنه يتعالى عما يشركون، وعما يشركون، وعما يقولون من إثبات الأولاد والشركاء له، وقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] وهم كانوا يقولون إنهم يشفعون لهم ويتقربون بهم. لكن كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه فيجعلون المخلوق يملك الشفاعة وهذا نوع من الشرك. فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فالشفاعة لا يملكها أحد غير الله»...**»[(١)].

ثم قال الكاتب: «**فهنا يوضح شيخ الإسلام وجه كون تشفع المشركين بأوثانهم شركاً؛ وهو أنهم «كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه» حسب لفظه!..** »[(٢)].

---

(١) "مجموع الفتاوى" (١٦/ ١٢٢).

(٢) تأمل هذا! وكأنه ظفر بقولٍ ينصر رأيه من (لفظِ) شيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وإن كان يعلم أن شيخ الإسلام يخالفه في كل ما يقول، فكأنه ظن أنه ألزم أهل التوحيد والسنة بنصٍ صريحٍ تكلم به إمام من أئمتهم ضد ما يرون! وهذا باطل كما سيتبين لك، وجرَت عادة أهل الضلال من المتصوفة على تسويق الكثير من بدعهم وضلالاتهم ببعض «متشابه» كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ويتركون صريحه، كما صنع محمد علوي مالكي في مسألة المولد، وكذلك غيره في مسألة التصوف، وآخر في مسألة السبحة، وغير ذلك.

وهذا منهم يدل على فساد سوق أئمتهم بين العالمين، وأن الناس لا يألفونهم ولا يألفون مقالاتهم فلم يجدوا أفضل من شيخ الإسلام عند الناس لما له من منزلة عظيمة في قلوب الخلق، وكذلك يدل على مكرهم ورقة دينهم، وإلا فكلام شيخ الإسلام ابن تيمية كثير صريح واضح فيتركون الصريح ويأتون بالمتشابه الموهم!

وهذا قول جاهل، فليس في هذا شرك في الربوبية! وإنما هو صريح في شرك العبادة، فكون الشفاعة في ملك الله لا يعني ذلك أن الشفاعة من فعله سبحانه وتنزه، فالشفاعة من أفعال الخلق، والله لا يكون شافعاً لأن الملك جميعاً له، ولهذا لما قال الأعرابي للنبيﷺ: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول اللهﷺ: «**ويحك، أتدري ما تقول؟**» وسبح رسول اللهﷺ فما زال يسبح، حتى عرف ذلك في وجه أصحابه، ثم قال: «**إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك**..» الحديث رواه أبو داود بسند جيد[1].

وملكه للشفاعة معناه: شأنها والإذن بها، فالملك جميعاً ملكه وسلطانه، ولا يُشفع في سلطان الملك إلا بإذنه؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [الزمر: ٤٤] وقال تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾ [النجم: ٢٦] والمشركون يثبتون لإلهتهم الشفاعة وليس عندهم إذن من الله تعالى بذلك!

فتوهم الكاتب أن قول شيخ الإسلام: «**كانوا يثبتون الشفاعة بدون إذنه**» يوافق قوله (ص٩) في صور الشرك في ذهنه!: «**اعتقاد وجود من ينازع الخالق المالك المدبر خلقه أو ملكه أو تدبيره بغير رضاه الكامل وإذنه التام**..» وفرق بين الشفاعة التي هي عمل الخلق، وبين الخلق والملك والتدبير التي هي من صفات الخالق، فهم توهموا ما ليس بمشروع أنه مشروع وقربى يتقربون به إلى الله، والله لم يأذن به، ولن يأذن به، لأن الله تعالى لا يأذن بالشرك به سبحانه وتعالى.

---

[1] "سنن أبي داود" (ح٤٧٢٦).

ثم ما بال الكاتب يأخذ هذا الكلام الذي يظن أنه موافقا له «حسب لفظه!» ويهمل من كلام شيخ الإسلام الكثير المستفيض في نقض هذا الفهم الخاطئ؟

فقال رحمه الله تعالى: «وجماع الأمر: أن الشرك نوعان: شرك في ربوبيته: بأن يجعل لغيره معه تدبيرًا ما، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] فبين سبحانه أنهم لا يملكون ذرة استقلالا، ولا يشركونه في شيء من ذلك. ولا يعينونه على ملكه، ومن لم يكن مالكًا ولا شريكًا ولا عونًا، فقد انقطعت علاقته .

وشرك في الألوهية: بأن يدعى غيره دعاء عبادة، أو دعاء مسألة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]»[1].

وقال رحمه الله: «فعكوف المؤمنين في المساجد لعبادة الله وحده لا شريك له، وعكوف المشركين على ما يرجونه، ويخافونه من دون الله، وما يتخذونهم شركاء وشفعاء، فإن المشركين لم يكن أحد منهم يقول: إن العالم له خالقان ولا إن الله له شريك يساويه في صفاته، هذا لم يقله أحد من المشركين، بل كانوا يقرون بأن خالق السماوات والأرض واحد»[2].

وقال رحمه الله: «ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بُعث إليهم محمد ﷺ أولا - لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرّون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضا، وهم مع هذا مشركون»[3].

وقال رحمه الله: «ومن عبد مع الله إلها آخر فهو مشرك الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خالق العالم وهذا كان شرك العرب كما أخبر الله عنهم

---

[1] "اقتضاء الصراط المستقيم" (٢/ ٢٢٦).

[2] "اقتضاء الصراط المستقيم" (٢/ ٣٥٧- ٣٥٨).

[3] "التدمرية" (ص ١٨٠).

في غير موضع من القرآن أنهم كانوا يقولون أن الله خلق العالم ولكن كانوا يتخذون الآلهة شفعاء يشفعون لهم يتقربون بهم إلى الله»[1].

وقال رحمه الله: «فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه، محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره، وقد يعصيه، وقد يعبده مع ذلك؛ وقد يعبد الشيطان والأصنام.

ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمنا، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦] فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿**قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٤، ٨٥] إلى قوله: ﴿**فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٩]...»[2].

وقال رحمه الله: «ومن المعلوم أن التوحيد الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه والتنزيه الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، هو ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع؛ مثل عبادة الله وحده لا شريك له، فمن عبد غيره كان مشركًا ولم يكن موحدًا، وإن أقر أنه خالق كل شيء»[3].

وقال رحمه الله: «التوحيد الذي جاء به الرسول فهم مع زعمهم أنهم موحدون ليس توحيدهم التوحيد الذي ذكر الله ورسوله بل التوحيد الذي يدعون الاختصاص به باطل في الشرع والعقل واللغة وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده فمن عبد الله

---

[1] "الرد على المنطقيين" (ص٢٩٢- ٢٩٣).

[2] "الفتاوى الكبرى" (٥/ ١٦٠).

[3] "بيان تلبيس الجهمية" (١/ ٤٢٨).

وحده لم يشرك به شيئًا فقد وحده ومن عبد من دونه شيئًا من الأشياء فهو مشرك به ليس بموحد مخلص له الدين وإن كان مع ذلك قائلاً بهذه المقالات التي زعموا أنها التوحيد حتى لو أقر بأن الله وحده خالق كل شيء وهو التوحيد في الأفعال الذي يزعم هؤلاء المتكلمون أنه يقر أنه لا إله إلا هو ويثبتون بما توهموه من دليل التمانع وغيره لكان مشركًا وهذه حال مشركي العرب الذين بعث الرسول إليهم ابتداء ونزل القرآن ببيان شركهم ودعاهم إلى توحيد الله وإخلاص الدين له فإنهم كانوا يقرون بأن الله وحده هو الذي خلق السموات والأرض كما أخبر الله بذلك عنهم في القرآن كما في قوله: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [لقمان ٢٥] وفي قوله: ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون ٨٤-٨٩] وقال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف ١٠٦] قال ابن عباس: «تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله» وهم مع هذا يعبدون غيره فهذا الشرك المذكور في القرآن في مواضع كثيرة المضاد للإخلاص والتوحيد...»[١].

وقال رحمه الله: «والمشركون الذين كفرهم رسول الله ﷺ وقاتلهم واستباح دماءهم وأموالهم من العرب لم يكونوا يقولون: إن آلهتهم شاركت الله في خلق السماوات والأرض والعالم، بل كانوا يقرون بأن الله وحده خالق السماوات والأرض والعالم»[٢].

وقال رحمه الله: «والإله هو بمعني المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعني القادر علي الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعني القادر علي الاختراع، واعتقد أن هذا

---

[١] "بيان تلبيس الجهمية" (٣/ ١٣٨- ١٣٩).

[٢] "جامع المسائل" (٣/ ١٥٠).

أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من المتكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين»[1].

وكلامه في هذا الباب كثير جداً، وأختم بتعقبه لمفهوم التوحيد عند المتكلمين –والذين مشى الكاتب على خطاهم– وظنهم أنه هو توحيد الربوبية فقال رحمه الله في "مجموع الفتاوى" (٨/ ١٠١): «يقولون: "التوحيد" هو توحيد الربوبية و "الإلهية" عندهم هي القدرة على الاختراع ولا يعرفون توحيد الإلهية ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود وأن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيدا حتى يشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦] قال عكرمة: «**تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم يعبدون غيره**».

وهؤلاء يدعون التحقيق والفناء في التوحيد ويقولون إن هذا نهاية المعرفة وإن العارف إذا صار في هذا المقام لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة، وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار من شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال الله عنهم: ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون ٨٤-٨٩] وقال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**

[1] "درء تعارض العقل والنقل" (١/ ٢٢٦).

وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ للهَِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ - ٦٣] وقال تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُّ قُلِ الْحَمْدُ للهَِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُّ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُّ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُّ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُّ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُّ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣١- ٣٥] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهَِّ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهَِّ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهَِّ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهَِّ تَعَالَى اللهُّ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهَِّ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل:٦٠- ٦٤]

فإن هؤلاء المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم وبيده ملكوت كل شيء بل كانوا مقرين بالقدر أيضا فإن العرب كانوا يثبتون القدر في الجاهلية وهو معروف عنهم في النظم والنثر ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له

بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرا من اليهود والنصارى. فمن كان غاية توحيده وتحقيقه هو هذا التوحيد كان غاية توحيده توحيد المشركين، وهذا المقام مقام وأي مقام زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين المسلمين والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام»[1].

وكلام شيخ الإسلام هذا هو كلام أهل السنة قاطبة خلافاً لاعتقاد المتكلمين ومن قال بقولهم من غلاة المتصوفة في معرفة حقيقة لا إله إلا الله، والتوحيد الواجب على الخلق، والعبادة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس.

---

[1] "مجموع الفتاوى" (٨/ ١٠١ - ١٠٣).

فصل

لما حصر الكاتب الشرك في الصورتين السابق ذكرهما، وهما:

[١] الاستقلالية بخصائص الربوبية من دون الله.

[٢] أو اعتقاد وجود من ينازع الله تعالى في خصائصه.

قال (ص١١): «**ولذلك جاء ذكر هذين النوعين من الإشراك -شرك تعدد الخالقين والمالكين والمدبرين، وشرك الأولياء من الذل- ونزه الباري نفسه عز وجل عنهما في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]..**» ثم نقل بعض كلام الإمام ابن جرير الطبري في معنى الآية.

وأوهم أن المراد بمعنى اتخاذ الولي من الذل هو اعتقاد أن لها تصرفاً في الكون وتأثيراً على أمر الله فقال (ص١٢): «**لقد كان العربي يتوجه للآلهة المزعومة على معنى أن لها تصرفاً في الكون وتأثيراً على أمر الله، على صورة الولي من الذل!**».

ثم عرّض بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، فذهلت عن هذا المعنى، وأخطأت في تصور شرك المشركين، وأتى بشيء لا تقبله العقول فقال (ص١٢): «**وصورة الولي من الذل هي التي غابت عن أذهان بعض المدارس الإسلامية المتأخرة! فتصورت أن شرك العرب وقع بمجرد عمل الجوارح الظاهر، ولو لم يقارنه عمل باطن يخل بتوحيد الربوبية! فكفّرت أهل الشهادتين بسبب هذا الذهول، فمن ظن أن شرك العرب كان خارجاً عن إحدى هاتين الصورتين فقد أخطأ خطأً عظيماً، وأتى بشيء لا يمكن أن تقبله العقول**».

وكلام الكاتب فاسد من وجوه:

أولها: أن العقائد والأحكام، وفهم النصوص، يؤخذ بمجموعها لا ببعضها دون بعض، فإن كان في هذه الآية الدلالة على الشرك في الربوبية، ففي غيرها الدلالة على أن من الشرك

اتخاذ الوسطاء والشفعاء من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فسمى الله اتخاذهم للشفعاء في أول الآية "عبادة" ووصف فعلهم ذلك في آخرها بـ"الشرك".

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] سمى الله اتخاذ الأولياء زلفى وقربة إلى الله تعالى في أول الآية "عبادة" وفي آخره حكم عليهم بهذا النوع من القربى بـ"الكفر".

ويقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٢- ٢٣]، وهذه الآية التي قيل بأنها تقطع علائق الشرك، حيث أبطل الله على المشركين جميع الطرق لاتخاذ الشريك من دون الله، واعتقاد كل طريق من كل الطرق على انفرادها يعد نوعاً من الشرك، وهي:

[١] اعتقاد الانفراد بملك ما لا يملكه الله.

[٢] اعتقاد المشاركة لله تعالى في بعض ملكه.

[٣] اعتقاد المعاونة لله تعالى في تدبير السموات والأرض.

[٤] اتخاذ الشفعاء من دونه بدون إذن من الله.

ولو كان اتخاذ الشفعاء من دونه يصاحبه شيء من اعتقاد الخالقية أو المشاركة في شيء من خصائص الربوبية ما كان لإفراد اتخاذ الشفعاء فائدة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «نفى بذلك جميع وجوه الشرك، فإن ما يشرك به إما أن يكون له ملك أو شريك في الملك، أو يكون معينا، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشفاعة التي هي دعاء لك ومسألة وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له»[1].

وقال رحمه الله: «ذكر سبحانه الأقسام الممكنة فان المشرك الذي يدعو غير الله ويرجوه ويخافه أما أن يجعله مالكا أو شريكا أو ظهيرا أو شفيعا وهكذا كل من طلب منه أمر من الأمور أما أن يكون مالكا مستقلا به وأما أن يكون شريكا فيه وأما أن يكون عونا وظهيرا لرب الأمر وأما أن يكون سائلا محضا وشافعا إلى رب الأمر فإذا انتفت هذه الوجوه امتنعت الاستغاثة به»[2].

وقال أبو عبدالله ابن القيم: «المشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع إما مالك لما يريده عباده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيرا، فإن لم يكن معينا ولا ظهيرا كان شفيعا عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه، فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاةً وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها»[3].

وقال في كلام متين له عند هذه الآية: «فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق

---

[1] "الجواب الصحيح" (٣/ ١٥٤- ١٥٥).

[2] "الرد على المنطقيين" (ص: ٥٢٩).

[3] "مدارج السالكين" (١/ ٣٥١).

بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكا للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكا لمالكها، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السماوات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركها له، فيقول المشرك: قد يكون ظهيراً أو وزيراً أو معاوناً فقال: ﴿**وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ**﴾ [سبأ: ٢٢] ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها، وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه؟»[1].

الوجه الثاني: أنه ولو قيل بأن الآية جامعة لكل أنواع الشرك، فإن فيها ما يبطل مراده، حيث ذكر الله تعالى في هذه الآية أحديته في ذاته وملكه وغناه عن خلقه، ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ وهذه أحدية الذات فلا خالق إلا هو سبحانه ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**﴾ وهذه أحدية الملك ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ**﴾ وهذه أحدية الغنى كما قال تعالى:﴿**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ**﴾ [محمد: ٣٨] فإذا علم المرء ذلك انقطع عنه العذر في صرف العبادة لغير الله، ومن ذلك القرب والطاعات الفعلية كالذبح والنذر والسجود ونحوها، والقولية: كالاستغاثة والدعاء ونحوه، فمن يستغيث بالأولياء والصالحين ويدعوهم، ويلجأ إليهم في كشف الشدائد والكربات كان بفعله كأن الله مفتقرٌ إلى أولئك الأولياء –جل الله وتنزه–[2] فقطع الله تعالى عن المشركين هذا ببيان غناه عن أولئك.

---

[1] "مختصر الصواعق المرسلة" (ص٨٢- ٨٣).

[2] بل منهم من يعتقد أن لله شركاء في الملك والتصرف يسمونهم الأقطاب والأوتاد، وهذا كثير في كلام غلاة المتصوفة.

وقد روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أن الصابئين والمجوس قالوا: «لولا أولياء الله لذلّ الله» فأنزل الله هذه الآية[1]، ولم يكن هذا عند غالب مشركي العرب، ولا دليل على أن الآية أنزلت فيهم، وتقرير الله تعالى لهذا المعنى وهو غناه عن الولي من الذل، لا يعني أن كل المشركين يعتقدون ذلك، فالله تعالى أخبر عن نفسه في الآية بأنه لم يتخذ ولداً؛ ولم يكن المشركون يعتقدون ذلك فالنصرانية فيهم قليل، وكذلك ذكر أنه لا شريك له في الملك؛ ولم يكن المشركون يعتقدون ذلك، بل يعتقدون خلافه كما سبق في قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] فلماذا جزم الكاتب بأن اعتقاد المشركين في آلهتهم هو المعنى الأخير، وهو اتخاذ الولي من الذل، ولم يحتمل كلّ المعاني؟

الوجه الثالث: قوله (ص١٢): «**لقد كان العربي يتوجه للآلهة المزعومة على معنى أن لها تصرفاً في الكون وتأثيراً على أمر الله، على صورة الولي من الذل!**» ظاهر كلامه أن كل العرب كذلك وهذا كذبٌ وجهل مصادم لصريح القرآن الكريم كما سبق بيانه.

نعم؛ هناك من كان يعتقد أن لله تعالى أولياء من الذل كالصابئة والمجوس، ولكن ليس هذا غالب دين المشركين، إذ إن غالبهم كما تقدم في صريح الآيات يقر بتوحيد الربوبية، ولا يعني ذلك عدم وقوعهم في صورٍ من الشرك في الربوبية[2]، فهو واقع فيهم في بعض خصائص الربوبية لا في دلائلها الظاهرة كالخلق والرّزق وتدبير الأمر والإحياء والإماتة ونحوه، ولكن عامة شركهم كان في "العبادة"[3] واتخاذ الوسطاء والشفعاء بينهم وبين الله تعالى، ولم ينسبوا المُلك لآلهتهم لا استقلالا ولا بالمغالبة، كما تقدم بيانه، وكانوا يقولون في

---

[1] "تفسير الطبري" (١٧/ ٥٩٠).

[2] ينظر كتاب "الشرك في القديم والحديث" (٤٣٨-٤٩٩).

[3] السابق (٥٠٠) وما بعدها.

تلبيتهم: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، تملكه وما ملك**»[1].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: «**يا حصين: كم تعبد اليوم إلها؟**» قال: سبعة: ستة في الأرض، وواحدا في السماء، قال: «**فأيهم تعد لرهبتك ورغبتك؟**» قال: الذي في السماء. الحديث[2].

وفي رواية عند ابن خزيمة في "التوحيد" أن النبيﷺ قال: «**فإذا أصابك الضر من تدعو؟**» قال: الذي في السماء، قال: «**فإذا هلك المال من تدعو؟**» قال: الذي في السماء، قال: «**فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه؟**»[3].

فهم يقرون بألوهية الله، وأن آلهتهم لا تملك من ملك الله شيئاً، وإنما يعدونهم وسطاء وشفعاء بينهم وبين الله.

وليتأمل هذا الكاتب ومن على شاكلته قليلاً في كلام الله إن كانوا يفقهون! وكيف أن الله تعالى ذكر أن مشركي العرب كانوا يفزعون إلى الله تعالى في الشدائد والمعضلات كما قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١] وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ**﴾ [الأنعام: ٦٣- ٦٤] وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا**

---

[1] رواه مسلم (ح١١٨٥).

[2] رواه الترمذي (ح٣٤٧٩) وإسناده حسن.

[3] "التوحيد" (١/ ٢٧٨).

أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء: ٦٧] [العنكبوت: ٦٥، ٦٦] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

السؤال الكاشف لشبهة الكاتب ومن معه:

إذا كان هؤلاء المشركون يعتقدون في آلهتهم شيئاً من خصائص الربوبية فلماذا لا يدعونها في وقت الشدة أيضاً؟ فكيف يمنحون آلهتهم خصائص الربوبية في وقت الرخاء ويسلبونها عنها في وقت الشدة؟

لا يستقيم الجواب لهذا الكاتب وفهمه لشرك أهل الجاهلية على ما ذكر، ولكن من عرف أن شركهم كان باتخاذ الوسطاء والشفعاء يدعوهم ويتقرب إليهم من دون الله، فسيعرف أنهم إنما يفعلون ذلك في وقت الرخاء، ولكن عند الشدة والكرب، يعلمون أن الشأن ليس من شأن آلهتهم، ويرجعون إلى ما يؤمنون به بأن الملك كلّه لله، وأنه هو الغني بذاته، وليس له ولي من الذل! عند ذلك يفزعون إليه مباشرة من دون واسطة!

والله تعالى كفّر المشركين بدعائهم غير الله تعالى ولم يرد ذكر اعتقادهم خصائص الربوبية في معبوداتهم، وكذلك نبيناﷺ كفّر المشركين، وقاتلهم، ولم ينقب عما في قلوبهم أيعتقدون فيها شيئاً من خصائص الربوبية أم لا؟

فماذا يصنع الكاتب بآيات محكمات ذكر الله تعالى فيها كفر من دعا غير الله، من غير ذكر القيد المزعوم! وفي القرآن من التقييد في معانٍ أخر الشيء الكثير؟

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥] ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فوصف الله تعالى من يدعو غيره بالظلم والضلال والكفر ولم يذكر قيد الكاتب بشرط أن يعتقد في معبوده شيئاً من خصائص الربوبية!

تتمة:

بل من المشركين الذين لم يعقل الكاتب حقيقة شركهم من كان دينه تقليد المشركين! فيتابعهم في ظاهر أفعالهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٢- ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٢٤] وقال تعالى عن محاربة المشركين للتوحيد لأنه يخالف دين آبائهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾

[ص: ٥ - ٧] ومثل ذلك قال قوم هود عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وقال قوم صالح عليه السلام: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢] وقال عن إبراهيم عليه السلام وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٤] فأين خصائص الربوبية التي يجعلها الكاتب شرطاً في تكفير المشركين؟ وجوابهم متحقق عن الاستفهام الإنكاري بأن من يعبدونه من دون الله من الأصنام لا يسمعون الدعاء، ولا ينفعون ولا يضرون! وإنما دعوهم طلباً في شفاعتهم تبعاً لآبائهم.

وقال تعالى عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧] وقال تعالى عن قوم فرعون وما قالوه لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨].

الوجه الرابع: في قوله (ص١٢): «**وصورة الولي من الذل هي التي غابت عن أذهان بعض المدارس الإسلامية المتأخرة! فتصورت أن شرك العرب وقع بمجرد عمل الجوارح الظاهر، ولو لم يقارنه عمل باطن يخل بتوحيد الربوبية! فكفّرت أهل الشهادتين بسبب هذا الذهول، فمن ظن أن شرك العرب كان خارجاً عن إحدى هاتين الصورتين فقد أخطأ خطأ عظيماً، وأتى بشيء لا يمكن أن تقبله العقول**».

صورة الولي من الذل في هذه الآية لم تغب عن أذهان من عرّض بهم هذا الكاتب، فهم يعلمون معناه بمثل ما نقله عن المفسرين، ولكنّهم لم يَقْصُروا الشرك على هذا المعنى فقط، وتعيسٌ من غاب عنه صريح القرآن ومحكمه الواضح المبين! كما غاب عن هذا الكاتب

وأمثاله ما سبق من الآيات الدالة على بطلان تصوره لمعنى "التوحيد" و"الشرك" و"العبادة" و"الرب" و"الإله".

وقد بيّن أئمة الدعوة السلفية في العصور المتأخرة أنواع التوحيد أتمَّ البيان، وأوضحوا صور الشرك أبلغ الإيضاح، وكلامهم في ذلك أشهر من أن يبسط وينشر في مثل هذا الرد المختصر، وعامة مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى وطلابه من بعده مليئةٌ بتقرير هذا الأصل وتحقيقه، والرد على شبه المخالفين، وبينوا للناس ما حجبه علماءُ السّوءِ من ضُلّال أهل الكلام والمتصوفة عن حقيقة لا إله إلا الله الواضحة البينة في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ وكلام أهل العلم واللغة.

يقول الإمام محمد بن عبدالوهاب: «التوحيد نوعان؛ توحيد الربوبية، وهو: أن الله سبحانه متفرد بالخلق والتدبير، عن الملائكة، والأنبياء، وغيرهم؛ وهذا حق لا بد منه، لكن لا يدخل الرجل في الإسلام؛ بل أكفر الناس مقرون به، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وأن الذي يدخل الرجل في الإسلام، هو: توحيد الإلهية، وهو: ألا يعبد إلا الله، لا ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، وذلك أن النبي ﷺ بعث، والجاهلية يعبدون أشياء مع الله، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يدعو عيسى، ومنهم من يدعو الملائكة؛ فنهاهم عن هذا، وأخبرهم أن الله أرسله ليوحد، ولا يدعى أحد، لا الملائكة، ولا الأنبياء. فمن تبعه، ووحد الله، فهو الذي يشهد أن لا إله إلا الله؛ ومن عصاه، ودعا عيسى، والملائكة، واستنصرهم، والتجأ إليهم، فهو الذي جحد لا إله إلا الله، مع إقراره أنه لا يخلق، ولا يرزق إلا الله، وهذه جملة لها بسط طويل، ولكن الحاصل: أن هذا مجمع عليه بين العلماء»[1].

---

[1] "الدرر السنية" (١/ ٦٥- ٦٦).

إلى أن قال: «فبعث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين إبراهيم، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى، لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلا عن غيرهما. وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يخلق ولا يرزق إلا هو؛ ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات السبع، ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين، الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا، فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾، [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وغير ذلك من الآيات الدالات على تحقق أنهم يقولون بهذا كله، وأنه لم يدخلهم في التوحيد، الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه، هو توحيد العبادة، الذي يسميه المشركون في زماننا "الاعتقاد"[١] كما كانوا يدعون الله سبحانه وتعالى، ليلا ونهارا، خوفا وطمعا، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله عز وجل ليشفعوا لهم، ويدعو رجلا صالحا، مثل اللات، أو نبيا مثل عيسى»[٢].

[١] فيقولون: «فلا يعتقد فيه» أو: «للناس فيه اعتقاد» ويريدون بذلك أنه يُدعى من دون الله، ويُصرف له أنواعٌ من العبادة.

[٢] "الدرر السنية" (١/ ٦٨-٦٩)

وقال رحمه الله: «والتوحيد نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية.

أما توحيد الربوبية: فهو الذي أقرت الكفار به، ولم يكونوا به مسلمين؛ وهو الإقرار بأن الله الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور، والدليل قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٣١] .

وأما توحيد الألوهية: فهو إخلاص العبادة كلها بأنواعها لله؛ فلا يدعى إلا الله، ولا يرجى إلا هو، ولا يستغاث إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، والدليل عليه: الآيات الكريمات، ولا ينذر إلا له، ولا يذبح ذبح القربات إلا له وحده لا شريك له، والدليل على ذلك: الآيات الكريمات. وهذا: هو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه، والمعبود، فمن جعل الله إلهه وحده، وعبده دون من سواه من المخلوقين، فهو المهتدي»[1].

وقال في تلقينه للعامة أصول الدين: «فإذا قيل لك: إيش الفرق: بين توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية؟ فقل: توحيد الربوبية فعل الرب، مثل: الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإنزال المطر وإنبات النباتات وتدبير الأمور، وتوحيد الإلهية فعل العبد مثل: الدعاء والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والرغبة والرهبة والنذر والاستغاثة وغير ذلك من أنواع العبادة»[2].

وقال في رسالته النافعة العظيمة "القواعد الأربع" : «القاعدة الأولى: أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور، ولم يدخلهم ذلك في الإسلام، والدليل قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ**

---

[1] "الدرر السنية" (١/ ١٣٧-١٣٨) .

[2] "الدرر السنية" (١/ ١٥٣).

الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس آية: ٣١] .

القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم، إلا لطلب القربة والشفاعة، نريد من الله لا منهم، لكن بشفاعتهم والتقرب إلى الله بهم؛ فدليل القربة قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾** [الزمر: ٣] ، ودليل الشفاعة، قوله تعالى: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾** [سورة يونس آية: ١٨] ...»[1].

فكل هذا من شيخ الإسلام رحمه الله تعالى يوضح حقيقة التوحيد، والفرق بين توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون في الجملة، وتوحيد الألوهية الذي ضلّ فيه أكثر الخلق، ولكلٍّ منهما شركٌ يقابله، كما تقدم نقله في كلام مضى للمقريزي.

وليس تكفير من أشرك في الألوهية، وصرف العبادة لغير الله تعالى ذهولاً ممن عرّض بهم، بل هو إجماع العلماء في كافة المذاهب الأربعة، وعليه عقيدة أهل السنة، في وقوع الكفر والشرك باللسان أو الاعتقاد أو الفعل مجرداً عن الاقتران بغيره، فلا يشترط إبطان عقيدة الربوبية في المألوه من دون الله.

وهذا ما قرَّره العلماء قبل أن تكون تلك المدارس المتأخرة فيما يزعم الكاتب، وطبقوه على كثيرٍ من الأعمال الشركية من غير التزام بذاك القيد:

يقول القاضي عياض المالكي (ت:٥٤٤هـ): «وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر وإن كان صاحبه مصرحا بالإسلام مع فعله ذلك الفعل **كالسجود للصنم وللشمس والقمر والصليب والنار** والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها والتزيي

[1] "الدرر السنية" (٢/ ٢٤).

بزيهم من شد الزنانير وفحص الرؤوس فقد أجمع المسلمون أن هذا لا يوجد إلا من كافر وأن هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرح فاعلها بالإسلام»[1].

فتأمل كيف جعل مجرد السجود للصنم والشمس والصليب والنار كفراً بالإجماع من غير نظر إلى قصده، وهل يعتقد في تلك المسجود لها شيئاً من خصائص الربوبية أو لا؟

ويقول أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي (ت:٥١٣هـ): «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم».

قال: «وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع: مثل إيقاد السرج وتقبيلها وتخليقها، **وخطاب أهلها بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا، وأخذ تربتها تبركا، وإفاضة الطيب على القبور**، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى.

والويل عندهم: لمن لم يقبل مشهد الكف، ولم يتمسح بالآجر يوم الأربعاء، ولم يقل الحمالون على جنازته: أبو بكر الصديق ومحمد وعلي، أو لم يعقد على قبر أبيه أزجا بالجص والآجر، ولم يخرق ثيابه، ولم يرق ماء الورد على القبر»[2].

فأين اشتراطه اعتقاد شيءٍ من خصائص الربوبية فيما يعتقدون ويقولون من خطاب الموتى بالحوائج ودعائهم؛ حتى قال: «**هم عندي كفار بهذه الأوضاع؟**»

ويقول النووي (ت:٦٧٦هـ) : «والأفعال الموجبة للكفر هي التي تصدر عن تعمد واستهزاء بالدين صريح، **كالسجود للصنم أو للشمس**، وإلقاء المصحف في القاذورات، والسحر الذي فيه عبادة الشمس ونحوها، قال الإمام: في بعض التعاليق عن شيخي أن

---

[1] "الشفا" (٢/ ٢٨٧).

[2] "إغاثة اللهفان" لابن القيم (١/ ٢١٤).

الفعل بمجرده لا يكون كفرا، قال: وهذا زلل عظيم من المعلق ذكرته للتنبيه على غلطه، وتحصل الردة بالقول الذي هو كفر، سواء صدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء»[1].

وهذا ككلام القاضي عياض السابق، وفيه عدم الالتفات إلى الاعتقاد إذا كان الفعل أو القول صريحاً في الشرك أو الكفر.

وكلام العلماء في المعنى كثير، ومن راجع أبواب حكم المرتد وجد من صور الشرك والكفر القولية والفعلية ما لا يشترط فيه إلى النظر في اعتقاد القلب على ماذا يكون، خلافاً لعقيدة المرجئة، التي يصدر منها هذا الكاتب، كما يوضحه الوجه التالي.

الوجه الخامس: قوله في تخطئة أهل السنة في تكفير المشركين: «**فتصورت أن شرك العرب وقع بمجرد عمل الجوارح الظاهر، ولو لم يقارنه عمل باطن يخل بتوحيد الربوبية!**»

وهذا القول نشأ عن عقيدة الإرجاء، كما سبق الإشارة إليه من قبل، لأن خلل من خالف في التفريق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ناتج عن خلل في تحقيق معنى الإيمان عنده! وذلك "التوحيد من الإيمان، والإيمان عند السلف قول وعمل:

[١] والقول هو:

أ- قول القلب وهو تصديقه بما أخبر الله به، ومنه توحيد الربوبية، والأسماء والصفات.

ب- وقول اللسان؛ ومنه شهادة أن لا إله إلا الله، وهي توحيد الألوهية.

[٢] والعمل هو:

أ- عمل القلب مثل المحبة والخوف والرجاء والتوكل والخضوع والرغبة والرهبة وغيرها.

ب- وعمل الجوارح؛ كالذبح والنذر.

---

[1] "روضة الطالبين وعمدة المفتين" (١٠/ ٦٤).

والعمل هنا توحيد الألوهية، وعلى هذا فقول السلف في التوحيد فرع عن قولهم في الإيمان، وأقسام التوحيد يمكن أن تؤخذ من أقسام الإيمان"[1].

ومثله قول الكاتب (ص٨): «**حقيقة العبادة أنها عمل قلبي مخصوص لا يصرف إلا لمن كنت تؤمن أنه خالق أو مالك أو مدبر أو متصف بصفات الكمال**»

فالشرك عنده لا يكون إلا في الربوبية، والعبادة لا تكون إلا كذلك!

أما توحيد الألوهية فهو عمل الجوارح المتردد بين الحل والحرمة فقط، ولا يصل منه شيء إلى الشرك! فيقول (ص٨): «**أما أعمال الجوارح فمباحها (كقيامك تعظيماً لوالدك) ومحرمها (كالسجود لغير الله) فلا تكون عبادة إلا إذا كانت على وجه صرف شيء من خصائص الربوبية لهذا الذي قمت له أو سجدت!**».

وهذا الكلام هو قول المرجئة، والكاتب واقع في مقالتهم من قبل! كما قال في "عقيدته" التي سبق الإشارة إليها: «**وفي الإيمان : أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية . وأن هناك تلازما بين الظاهر والباطن ، فلا يؤمن القلب إلا وظهرت آثار الإيمان على أعماله ، ولا يكفر شخص بعمل إلا وقد كفر قلبه**» ودعواه التلازم بين الظاهر والباطن في أبواب التكفير دعوى باطلة! فقلت في تعقيبي عليه:

قوله: «**ولا يكفر شخص بعمل إلا وقد كفر قلبه**» هو من قول المرجئة، فالمرء يكفر بالقول والفعل مجرداً ولو أبطن عقيدة حسنة! فحسن القصد والمعتقد لا يشفع له في ذلك كما لا يشفع له في العقوبة كذلك لا يشفع له في الحكم، لقول النبيﷺ: «**إن العبد ليتكلّم بالكلمة مِنْ رضوان الله لا يُلْقي لها بالاً، يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله لا يُلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**» متفق عليه.

---

[1] بتصرف من "حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين" (ص١١٦).

وجاء الخبر بأن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] كانوا يقولون: بأنه «حديث الرّكب» أي أنه ليس من دين قلوبنا!

وتارك الصلاة كافر بالله تعالى باتفاق السلف ولو زعم عقيدة سليمة في قلبه.

وغير ذلك من المكفرات الفعلية (بالفعل أو الترك) عند أهل السنة يكفر فاعلها وقائل القول منها من غير نظر إلى ما يبطن قلبه من كفر أو دعوى إيمان!

وكذلك يقول في "عقيدته": «**وأرى أن أول واجب على العبد هو اليقين بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**» .

وأجبت عن هذا هناك بقولي: أول واجب على العبد (**الإشهاد**) بأنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، والإشهاد متضمن معنى الإقرار الباطن والظاهر، وبذلك جاء نص القرآن والسنة في أدلة عدة منها قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وقول النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتِل الناسَ حتى يَشهدُوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ويقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلِكَ عَصمُوا مني دِمائهُمْ، إلا بحق الإسلام، وحِسابُهُم على الله**» متفق عليه.

أما اليقين فهو أمر باطن، ولا يكفي وحده لأنه متضمن للتصديق بدون الإقرار، والتصديق بدون الإقرار لا يكفي، فمن كفار قريش كأبي طالب، ومن اليهود والنصارى من هو مصدّق بألوهية الله تعالى وبنبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ورسالته، ومع ذلك كذب (عناداً وكبراً) كحال فرعون لم يغنه (اليقين) المجرد كما قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا**

﴿أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] فهو وقومه مستيقنون بنبوة موسى وهارون وبربوبية الله تعالى، فما نفعهم هذا اليقين لما عارضه من الكبر والعناد.

فاليقين من شروط تحقيق (الإشهاد) بالشهادتين.

فهذه عقيدته في نواقض الإيمان، وبها يظهر جلياً موافقته للمرجئة، وكذلك هو هنا يقرر هذه العقيدة فيزعم أن المرء لا يكفر بعمل الجوارح الظاهر، حتى يقارنه عمل باطن يخل بتوحيد الربوبية!

وقول المرجئة في إرجاء العمل عن مسمى الإيمان وحقيقته من أخبث الأقوال، ولهذا اشتد عليهم نكير الأئمة، والآثار عنهم في ذلك مستفيضة في كتاب "السنة" و"الاعتقاد" فلتراجع!

أنشد الإمام ابن القيم في "النونية":

وكذلك الإرجاء حين تقر ... بالمعبود تصبح كامل الإيمان
فارم المصاحف في الحشوش وخرب الـ ... ـبيت العتيق وجد في العصيان
واقتل إذا ما اسطعت كل موحد ... وتمسحن بالقس والصلبان
واشتم جميع المرسلين ومن أتوا ... من عنده جهرا بلا كتمانِ
وإذا رأيت حجارة فاسجد لها ... بل خر للأصنام والأوثانِ
وأقر أن الله جل جلاله ... هو وحده الباري لذي الأكوانِ
وأقر أن رسوله حقا أتى ... من عنده بالوحي والقرآن
فتكون حقا مؤمنا وجميع ذا ... وزر عليك وليس بالكفرانِ
هذا هو الإرجاء عنـــد غــلاتهـم ... من كل جهمـي أخـــي الشـــيطانِ[1]

[1] "الكافية الشافية" (ص١٦٦ – ١٦٧).

ولما قرر الكاتب هذا الأصل المنحرف، وأنه لا توحيد إلا توحيد الربوبية، ولا شرك إلا ما قارنه اعتقاد خصائص الربوبية في المعبود، خرج الكاتب بنتيجة فاسدة! وهي: أن هذا النوع لم يُعرف من أحدٍ ممن يقول: لا إله إلا الله! فقال (ص١٥): «**وهذا الإخلال بتوحيد الربوبية، لا يُعرف ممن هم من أهل الشاهدتين خاصة! بمجرد صرف عبادة لا تجوز لغير الله، فما داموا من أهل الشهادتين لا يجوز تكفيرهم إلا بعد العلم أنهم صرفوا ما ظاهره العبادة كالسجود على وجه الإخلال بالربوبية، فإذا عُلم منهم يقيناً فهم كفار..** ».

وهذا خطأ من وجهين:

الوجه الأول: أن المقدمة الفاسدة ناتجها الفساد حتماً، وقد سبق إبطال مقدمته، وأن الشرك لا يشترط في الحكم به مقارنة اعتقاد بعض خصائص الربوبية فيمن يُعبد من دون الله، وأن من صرَفَ شيئاً من أنواع العبادة القولية والعملية لغير الله فقد أشرك كالسجود والنذر والدعاء ونحوه، وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع على كفر من: «**جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم**»[1].

الوجه الثاني: أن الكاتب جمع بين فساد الفهم للقضية، مع سوء المعرفة بالواقع، وذلك حينما زعم بأنه لا يُعرف أن أحداً من أهل لا إله إلا الله وقع منه الشرك الذي صوره، وهو المقارن للشرك في الربوبية! كيف والواقع خلاف ذلك، بل هو أقبح ما فاق به شرك المشركين في العصور المتأخرة على شرك أهل الجاهلية الأولى، حيث زادوا عليهم في أمرين:

الأمر الأول: أن شرك الأوائل كان في حين الرخاء، أما في الشدة فهم يفزعون إلى الله وحده، كما قال تعالى: **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** [العنكبوت: ٦٥، ٦٦]

---

[1] "الفتاوى الكبرى" (٥/ ٥٣٥) ونقله عنه جماعة ولم يخالفوا في ذلك، كابن مفلح في "الفروع" (١٠/ ١٨٨) والمرداوي في "الإنصاف" (١٠/ ٣٢٧) وغيرهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

أما شرك المتأخرين فهو في الرخاء ويزداد في الشدة أكثر!

ذكر الزبيدي الصوفي في كتابه "طبقات الخواص" في ترجمة إسماعيل الجبرتي، أنه في أثناء الدرس قام فجأة وقال: الجلبة الجلبة! وأخذ يشير بيده كأنه يمسك شيئاً، ثم بعد ليال جاء الشيخ يعقوب المخاوي من السفر، وأخبر أنه حصل عليهم في البحر ليلة كذا ريحٌ عاصف، وتغير البحر حتى أشرفوا على الهلاك، قال: فقلت: يا شيخ إسماعيل الغارة! يا أهل يس! قال: فرأيته والله بعيني وقد أقبل على وجه الماء كالطائر، وأمسك الجلبة بيده! وكان يعقوب كثير السفر، وقد شكى للشيخ إسماعيل كثرة أهوال البحر فقال له: إذا حدث عليك شيء فقل: يا أهل يس![1].

فأي الفريقين خير، هؤلاء الذين يزعمون الإسلام وينطقون بالشهادتين أم كفار قريش الذين يلجئون إلى الله في وقت الشدة؟

ونقل في ترجمة محمد بن يعقوب الكميت المعروف بأبي حربة! أنه ركب البحر مع أصحابه، فعصفت بهم الريح، وسقط الشراع، وأشرفوا على الغرق، قال: فتعلقوا به ولازموه في كشف ذلك عنهم، فقام إلى الدقل، ووضع يده على موضع الكسر، وقال: يا رسول الله اشعب، فالتأم الدقل بإذن الله تعالى وارتفع الشراع وساروا سالمين![2]

ونقل في ترجمة من وصفه بالولي العارف أبي الحسن علي بن عبدالله الطواشي أن بعض أصحابه اشتكى له من الشياطين وعبثها به، فقال له: إذا رأيت شيئاً من ذلك فنادِ باسمي![3]

---

[1] "طبقات الخواص" (ص١٠٢) بتصرف يسير.

[2] "السابق" (ص٢٧٥).

[3] "السابق" (ص١٩٩) ويراجع كتاب "مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية" (ص٧٢٩) وما بعدها.

الأمر الثاني: أن شرك المتأخرين فاق شرك الأوائل حيث تجاوز الشرك في العبادة، واتخاذ الوسطاء والشفعاء إلى اعتقاد الربوبية فيمن يعظمون، يقول شيخ مشايخنا الحافظ حافظ الحكمي في "معارج القبول": «وهذا بخلاف مشركي زماننا اليوم من عباد القبور وغيرها فإنهم يشركون في الشدة أضعاف شركهم في الرخاء، حتى إن كانوا ينذرون لهذا الولي في الرخاء ببعير أو تبيع أو شاة أو دينار أو درهم أو نحو ذلك فأصابتهم الشدة، زادوا ضعف ذلك فجعلوا له بعيرين أو تبيعين أو شاتين أو دينارين أو درهمين أو غير ذلك. وأيضا فإنهم يعتقدون فيهم من صفات الربوبية وأنهم متصرفون فيما لا يقدر عليه إلا الله، وغلا بعضهم حتى جعل منهم المتصرف في تدبير الكون على سبيل الاستقلال ويقولون فيه: إنها لا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بإذن فلان، تعالى الله وتقدس وجل وعلا عن أن يكون معه إله غيره أو يكون له شريك في الملك أو ولي من الذل: ﴿**لَو كَانَ فيهِمَا آلِهَة إلَّا الله لفسدتا**﴾ [الأنبياء:٢٢] ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهَّ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٩١] ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٤٢، ٤٣]»[1].

وكلامه حق، وليس هو من نسج الفِرى والخيالات، بل هذا في صريح كلامهم، فهل سيكفِّرُهم هذا الكاتب؟ أم يمنعه الإرجاء عن ذلك؟

ما قوله فيما قاله الشعراني عمن سموه بشمس الدين الحنفي بأنه: «أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود، وصرفه في الكون، ومكنه في الأحوال، وأنطقه بالمغيبات، وخرق له العوائد، وقلب له الأعيان، وأظهر على يديه العجائب»[2].

---

[1] "معارج القبول" (٢/ ٤٨٥).

[2] "طبقات الشعراني" (٢/ ٧٩) بواسطة كتاب "تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي" (١/ ١٣٦).

فَنَسب إليه التصرف في الكون، وتبديل الأحوال، وعلم الغيب، وقلب له الأعيان، وكل ذلك من خصائص الربوبية، فهل سيحكم بكفره؟

وما قوله في إبراهيم نياس الصوفي الذي ينشد عن نفسه قوله:

قد خصني بالعلم والتصريفِ ... إن قلت كن: يكن بلا تسويفِ

لكنّني اتخذته وكيلا ... تأدباً واختارني خليلاً!![1]

الله الذي يملك الدنيا والآخرة، وعنده أم الكتاب، وعلّم بالقلم، وهذا من خصائصه سبحانه وتعالى، كيف يجوز لمسلم أن ينسب هذا إلى مخلوق، ويقول:

فإن من جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومكِ علم اللوح والقلمِ!

أليس هذا اعتقاد بنسبة شيءٍ من خصائص الربوبية إلى غير الله؟

ومن خصائص الله تعالى: أنه ينزل الغيث! وهذا ابن ضيف الله الصوفي في "طبقاته" يقول عن عبدالرحيم ابن الشيخ عبدالله العركي بأنه: «بيّاع المطر لأنه كان يبيعه على الناس»[2].

وما قول الكاتب فيما ذكره الزبيدي في "طبقات الخواص " في ترجمة عيسى الهتار بأن: «قبره هناك مشهور يقصد للزيارة والتبرك من الأماكن البعيدة! ومن استجار به لا يقدر أحد أن يتعرض له بمكروه! ومن تعدى ذلك عوجل بالعقوبة ، والقرية كلها محترمة ببركته»[3].

أليس من خصائص الله أنه يجير ولا يجار عليه؟

وما قول الكاتب في قول أحمد التيجاني: «وليس لأحدٍ من الرجال أن يدخل كافة أصحابه الجنة بغير حساب ولا عقاب ولو عملوا من الذنوب ما عملوا، وبلغوا من المعاصي

---

[1] "جواهر المعاني" (٢/ ٧٦-٧٧) بواسطة كتاب "تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي" (١/ ١٣٥).

[2] "طبقات ابن ضيف الله" (ص٢٥٨ ، ٣٤٧) بواسطة كتاب "تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي" (١/ ١٤٢).

[3] "طبقات الخواص " (ص ٢٥١).

ما بلغوا إلاّ أنا وحدي! وأما سائر سادتنا الأولياء رضي الله عنهم فيدخلون الجنة أصحابهم بعد المناقشة والحساب!»[1].

وقال الشعراني في "طبقاته" : «ومنهم الشيخ الخضري رضي الله عنه المدفون بناحية نها بالغربية وضريحه يلوح من البعد من كذا وكذا ... وكان يقول: لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي آكل منه! وأجساد الخلق كالقوارير ، أرى ما في بواطنهم»[2].

ويقول أحمد التيجاني في إجابته لأحد مريديه لما طلب الضمان في المعرفة : «وأما ما طلبت من الضمان في المعرفة بالله من كونها صافية من اللبس، ممزوجة حقيقتها بالشريعة، فإن أمرها لا يكون إلاّ كذلك، لا غير ... وأنا لك ضامن أن لا تسلب ما دمتَ في محبتنا، وكل ما دونه، من دخول الجنة بلا حساب إلى ما وراءه وما قبله! وسامحتك فيما لا تعلمه مما مقتضاه سوء الأدب، وأما السورة فتداومها أحد عشر ألف مرة (١١٠٠٠) كل يوم أو كل ليلة مختلياً وحدك وقت ذكرها فقط ، وبدؤها أن تقرأ الفاتحة مرة، و صلاة الفاتح لما أغلق! مرة، وتهدي ثوابها لأهل النوبة في ذلك اليوم من الأولياء والأحياء ثم تقوم وتقف مستقبلاً وتنادي: دستور يا أهل النوبة جبهتي تحت نعالكم ، ثم تقرأ الفاتحة مرة، وتهدي ثوابها لروح الشيخ عبدالقادر، والشيخ أحمد الرفاعي، وجميع الأولياء الغائبين والحاضرين ثم تقرأ الفاتحة مرة وتهدي ثوابها لروح سيدنا محمد ﷺ ثم تسأل المدد!»[3].

ويقول يوسف النبهاني: «عبيد أحد أصحاب الشيخ حسين، كان له خوارق مدهشة، ومنها أنه كان يأمر السحاب أن يمطر لوقته»[4] .

---

[1] "الطبقات الكبرى" (٢/ ٩٠) ، و "كشف الحجاب" (ص٣٧٣-٣٧٤).

[2] "الطبقات الكبرى" (٢/ ١٠٦).

[3] "كشف الحجاب" (ص٨٥-٨٦).

[4] "كرامات الأولياء" (٢/ ٢٧٦).

ويقول الدباغ : «الشيخ للمريد في درجة لا إله إلاّ الله، محمد ﷺ رسول الله، فإيمانه متعلق به، وكذا سائر أموره الدينية والدنيوية! فقال له ابن مبارك – تلميذه – : إني أخاف من الله تعالى في أمور فعلتها! فقال لي: ما هي؟ فذكرت له ما حصل، فقال لي: لا تخف من هذه الأشياء! ولكن أكبر الكبائر في حقك أن تمر عليك ساعة ولا أكون في خاطرك ، فهذه هي المعصية التي تضرك في دينك ودنياك!»[1].

ونقل الشعراني في "الطبقات" عن الدسوقي قوله : «أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته! أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس»[2].

وبعد: هذا الكفر الخطير، والشر المستطير، والشرك الذي لو كان أبو جهل حياً لأنكره واستعظمه، **هل يستطيع هذا الكاتب أن يقضي بكفر هؤلاء وشركهم؟ أم يبادر بتعليلاَت مرجئة الصوفية واعتذاراتهم؟!**

وغاية القول: أن هؤلاء الضلاَّل من مرجئة الصوفية يَكْذِبون فيما يقولون، ويزينون للناس الباطل، ويلبسون عليهم أمر دينهم، فلا كفر عندهم في الأرض، حتى وإن زعموا أن الشرك لا يكون إلا ممن اعتقد في آلهته شيئاً من خصائص الربوبية، فإنهم إذا جاءوا عند أئمتهم وأرباب طوائفهم قالوا هذا جائز: لأنه بإذن الله! ولأنهم أولياء منحهم الله هذه الرتبة! وغير ذلك من هزيل القول، وقبيح التعليل، والاتجاه إلى المجازات اللفظية المجوجة، وما سبب هذا كلّه إلا ضلالهم في تحقيق الواجب على المكلفين، وهو أنه مجرد (المعرفة) بالربوبية ووجود الله، وما عدا ذلك هو عندهم فضلةً وكمالاً لا يضرّ ذهابه من قول المكلف وعمله، وهذا أقبح دين الإرجاء، والله المستعان.

---

[1] " الإبريز " (ص ٢٤٠).

[2] "الطبقات الكبرى" (١/ ١٧٠).

فصل

ثم ذكر الكاتب (ص١٣) بعض الأدلة من القرآن التي يزعم أن فيها دلالة على أن المشركين يتصورون في آلهتهم ما انتصر له وهو المشاركة في خصائص الإلهية استقلالا أو مغالبة.

الدليل الأول (ص١٤): قول الله تعالى: ﴿**أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وجه دلالته عنده: قال: «**ففي هذه الآية يبين الله تعالى بطلان اعتقاد العرب! في آلهتهم، وأنها تمنع عابديها من الله!! وأنها تحميهم منه سبحانه!**».

ونقل كلام الحافظ ابن كثير في تفسيرها حيث قال رحمه الله: «..﴿**أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا**﴾ استفهام إنكار، وتقريع وتوبيخ، أي: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا، **ليس الأمر كما توهموا، ولا كما زعموا..**»[١].

ثم قال: «**إذن فالعرب كانوا يتوهمون ويزعمون –على حسب تعبير ابن كثير**[٢]**– أن لآلهتهم سلطة تغالب سلطة الله تعالى ولو أحياناً..** » إلى آخر كلامه الزائف.

فأقول: هذا كلام باطل صدر من رأس جاهل بل مماحل! وفرق كبير بين مراد الله تعالى ومراده، وبين فهمه وفهم الحافظ ابن كثير، وبين تصويره وواقع المشركين، فالرجل يتلاعب في مفاهيم النصوص لتوافق هواه.

فلم يكن غالب العرب يجحدون الله، ولا خصائص ربوبيته حتى يجعلوا الحجارة والأوثان مانعة لهم من الله، وهم الذين يفزعون إلى الله في الشدائد والمعضلات، ويتقربون

---

[١] تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٤).

[٢] تقدم مثل هذا الصنيع في نقله لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذه علامة هوى! يتمسك بما يظنه يوافق هواه مع علمه أنه المنقول عنه يخالف هواه وتقريره! فكما أن شيخ الإسلام ابن تيمية يخالفه في أصله الفاسد، فكذلك الحافظ ابن كثير، فقال هذه القول هنا للمخاصمة باللفظ بدون تمعن في المعنى والمراد! فتأمل!

إليه بواسطة كما قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

وبدون واسطة كالدعاء في وقت الشدة، وكصنوف العبادات من صلاة وصيام وحج وصدقة وقرابين ونذور، كما جاء في شعر أبي طالب:

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ ... عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ
وَمِنْ كَاشِحٍ يَسْعَى لَنَا بِمَعِيبَةٍ ... وَمِنْ مُلْحِقٍ فِي الدِّينِ مَا لَمْ نُحَاوِلْ
وَثَوْرٍ وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ
وَبِالْبَيْتِ، حَقُّ الْبَيْتِ، مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ ... وبِاللهِ إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِغَافِلِ
وَبِالْحَجَرِ الْمُسْوَدِّ إِذْ يَمْسَحُونَهُ ... إِذَا اكْتَنَفُوهُ بِالضُّحَى وَالْأَصَائِلِ
وَمَوْطِئِ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلِ
وَأَشْوَاطُ بَيْنَ الْمَرْوَتَيْنِ إِلَى الصَّفَا ... وَمَا فِيهِمَا مِنْ صُورَةٍ وَتَمَاثُلِ
وَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللهِ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ ... وَمِنْ كُلِّ ذِي نَذْرٍ وَمِنْ كُلِّ رَاجِلِ
وَبِالْمَشْعَرِ الْأَقْصَى إِذَا عَمَدُوا لَهُ ... إِلَالٌ إِلَى مُفْضَى الشِّرَاجِ الْقَوَابِلِ
وَتَوْقَافِهِمْ فَوْقَ الْجِبَالِ عَشِيَّةً ... يُقِيمُونَ بِالْأَيْدِي صُدُورَ الرَّوَاحِلِ
وَلَيْلَةِ جَمْعٍ وَالْمَنَازِلِ مِنْ مِنًى ... وَهَلْ فَوْقَهَا مِنْ حُرْمَةٍ ومنازل
وَجمعٍ إِذْ مَا الْمُقْرَبَاتِ أَجَزْنَهُ ... سِرَاعًا كَمَا يَخْرُجْنَ مِنْ وَقْعِ وَابِلِ
وَبِالْجَمْرَةِ الْكُبْرَى إِذَا صَمَدُوا لَهَا ... يَؤُمُّونَ قَذْفاً رَأْسَهَا بِالْجَنَادِلِ[1]

---

[1] "سيرة ابن هشام" (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

فهم كانوا يتعبدون لله تعالى ويجعلون معه شركاء وشفعاء من دونه، وليس في الآية دليل على أن المشركين يعتقدون في آلهتهم سلطة تغالب سلطة الله، فالآية جاءت استفهام إنكار بعد قول الكفار: ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[الأنبياء:٣٨] ، واستهزأوا بالعذاب واستبعدوا وقوعه فقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾[الأنبياء:٤١] فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾[الأنبياء:٤٢-٤٣] والاستفهام الإنكاري ينقل النفي إلى الإثبات والإثبات إلى النفي، فيكون المعنى: لا يوجد آلهة تمنعنا منك يا الله، ثم أكد الله هذا المعنى بكونها عاجزة عن نصر نفسها، فكيف تنصر غيرها.

وعلى هذا المعنى كافة المفسرين، ولكن الكاتب تشبث بقول ابن كثير: «**ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا**»[1].

فظن أن مراد ابن كثير رحمه الله تعالى أنهم كانوا يتوهمون أن آلهتهم تمنعهم من الله! وتحميهم منه، وهذا فهم سقيم، وإنما مراد ابن كثير: **أنه ليس الأمر كما توهموا أن آلهتهم تنصرهم مطلقاً فهم لأنفسهم لا ينصرون،** ثم بعد ذلك: ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

أما الشطر الأول من الآية وهو قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا﴾ هو إنكاري جوابه النفي والموافقة على مضمونه وعليه فلا آلهة تمنعهم من دون الله.

فلا يصح في الاستفهام الانكاري أن يقع ما يُستنكر أصلاً، ويكون جواب الإثبات الإثبات! كما لا يصح أن يقال أن الله تعالى لما قال للكفار: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] أن يُظن بأنهم توهموا أنهم أعلم من الله! وعندما قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ

---

[1] "تفسير ابن كثير" (٥/ ٣٤٤).

تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] لا يفهم منه أنهم يتوهمون أنهم هم الذين يخلقون الأجنة؟ وعندما قال سبحانه: **﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾** [الواقعة: ٦٣-٦٤] أي أنهم يتوهمون أن إحياء الزرع بمقدورهم! ولما قال الله تعالى: **﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾** [النازعات: ٢٧- ٢٨] لا يفهم منه أنهم يتوهمون أنهم أشد خلقاً من الله تعالى الله وتنزه.

ففهم الكاتب من قول ابن كثير: «**ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا**» أنه متعلق بالاستفهام الانكاري المذكور في أول الآية وهو قوله تعالى: **﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا﴾** وأن معناه: أن المشركين يعتقدون أن آلهتهم تمنع عابديها من الله! وأنها تحميهم منه سبحانه!. أن لآلهتهم سلطة تغالب سلطة الله تعالى ولو أحياناً!

كل هذا فهم ظاهر البطلان، واضح الفساد في قويم اللسان وسليم الأذهان، فيا للعجب من أتى هذا الكاتب بهذا الفهم السقيم، والله المستعان.

وللآية نظائر توضح المعنى، كقول الله تعالى: **﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾** [الأعراف: ١٩١ - ١٩٥] وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾** [الأعراف: ١٩٧، ١٩٨] ونحو ذلك، وكلها تفيد عجز آلهة المشركين عن نصرة من يعبدها، ومن دلائل ذلك أنها هي بنفسها عاجزة عن نصرة نفسها.

الدليل الثاني (ص١٤): قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا**﴾ [الإسراء: ٤٢].

وجه دلالتها عنده: أن الله تعالى بين لوازم اعتقاد مشركي العرب في آلهتهم لو كان صحيحاً من كونهم يمتلكون شيئاً من خصائص الربوبية، للزم أن يسعوا إلى مغالبة الله تعالى في سلطانه وملكوته!

وقال (ص١٤): «**ولا يصح هذا اللازم إلا إذا كانت العرب تصرف شيئاً من خصائص الربوبية لتلك الأوثان..**»[1] إلى آخر كلامه المتهالك إلى أن قال: «**فهذه الآية تبين حقيقة العبادة في قوله تعالى:** ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣] **وأنها التعظيم الذي يصرف شيئاً من خصائص الربوبية لغير الله تعالى**».

فأقول: روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: قالت: تلا رسول اللهﷺ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**﴾ [آل عمران: ٧]- وقرأت إلى - ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: ٧] فقال: «**فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**».

وفي رواية الترمذي، قالت: سئل رسول الله ﷺ وفيها «**فإذا رأيتموهم فاعرفوهم**» قالها مرتين، أو ثلاثاً.

وصنيع هذا الكاتب من جنس من حذرنا رسول اللهﷺ منهم، يترك الآيات الواضحات البينات التي سبق فيه أن مشركي العرب لا ينكرون ربوبية الله تعالى ولا كثير من تفاصيل

---

[1] وهذا الزيف هو بعينه ما قاله الرافضي عبدالله دشتي في كتابه "الخلل الوهابي في فهم التوحيد القرآني" (ص٩٣) بدعوى أن هذه الآية ما في معناها إنما صيغت بهذا الأسلوب لما كان عليه المشركون من اعتقاد خصائص الربوبية فيما يعبدون!
وقد ذكر بعض من علّق على كلام الكاتب هنا أن الكاتب أخذ عامة ما في مقاله من كتاب الرافضي المذكور، وهناك ما يؤيد هذا الرأي، وخاصة في تقسيم العبادة الذي سبق في كلام الكاتب، وهو بمضمونه وتقسيمه موسعاً في كتاب الرافضي (ص١٦٧-١٦٨).

خصائصها التي يزعمها هذا الكاتب، بل ولا حقه في أحدية الألوهية في الكرب والشدة، ثم يأتي بمثل هذا الدليل ليثني دلالته على ما يريد؟

وهذه الآية نظيرة قوله تعالى: ﴿**لَو كَانَ فيهِمَا آلِهَة إِلَّا الله لفسدتا**﴾ [الأنبياء:٢٢] وَقَوله تَعَالَى ﴿**وَمَا كَانَ مَعَه من إِلَه إِذا لذهب كل إِلَه بِمَا خلق ولعلا بَعضهم على بعض**﴾ [المؤمنون: ٩١] وقد استدل بهاتين الآيتين الكاتب (ص١٥) ظناً منه أنه توافق مراده! وليس في الآيات دلالة على أن المشركين يعتقدون أن ثمّت ربٌ غير الله، أو من يوصف ببعض خصائص الربوبية.

فللآية المذكورة معنيان عند أهل التفسير[1]:

الأول: لاتخذوا سبيلاً إلى مغالبته، وهذا قول الحسن والكلبي وسعيد بن جبير[2].

والثاني: لاتخذوا سبيلاً إلى عبادته، كما في قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر: لو كان الأمر كما تقولون: من أن معه آلهة وليس ذلك كما تقولون، إذن لابتغت تلك الآلهة القربة من الله ذي العرش العظيم، والتمست الزلفة إليه، والمرتبة منه».

وروى عن قتادة أنه قال: «لو كان معه آلهة إذن لعرفوا فضله ومرتبته ومنزلته عليهم، فابتغوا ما يقربهم إليه»[3].

---

[1] "تفسير الثعلبي" (٦/ ١٠١) "تفسير السمعاني" (٣/ ٢٤٣) "تفسير الرازي" (٢٠/ ٣٤٦) "فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم" (١/ ١٦٢).

[2] "تفسير ابن أبي حاتم" (٧/ ٢٣٣٢) "تفسير الواحدي" (٣/ ١٠٩)

[3] "جامع البيان" (١٤/ ٦٠٣).

وقال الرازي في "تفسيره": «في تفسيره وجهان: الوجه الأول: أن المراد من قوله: إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضا، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع وقد شرحناه في سورة الأنبياء في تفسير قوله: ﴿**لَو كَانَ فيهِمَا آلِهَة إِلَّا الله لفسدتا**﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلا فائدة في الإعادة.

الوجه الثاني: أن الكفار كانوا يقولون ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**﴾ [الزمر: ٣] فقال الله: لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضا قربة إلى الله تعالى وسبيلا إليه ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فلما لم تقدر أن تتخذ لأنفسها سبيلا إلى الله فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله»[1].

فعلى القول الثاني في كلام الرازي إبطال لفهم الكاتب كما هو واضح.

قال الحافظ ابن كثير: يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: **لو كان الأمر كما تقولون**، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه -لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه[2].

قال شيخنا عبدالرزاق عفيفي رحمه الله في كلامه عن قول الله تعالى: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون:٩١]: «فبين سبحانه أنه لو

---

[1] "تفسير الرازي" (٢٠/ ٣٤٦).

[2] "تفسير ابن كثير" (٥/ ٧٨).

كان معه إله يشركه في استحقاق العبادة لكان له خلق وتقدير وملك وقهر وتدبير، إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك، ليرجى خيره، ونفعه، فيطاع أمره ويقصد قصده، ويخشى بأسه، فلا يعتدى على حدوده ولا ينتهك حماه. ولو كان له خلق وتقدير وملك وتدبير لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب كل بما خلق وتفرد بتدبير ما ملك إن لم يكن لديه من القوة ما يفرض بها سلطانه على الجميع، فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء:٤٢] على تقدير أن المراد: لاتخذوا سبيلا إلى مغالبته وقهره، أو الخروج عليه والتفرد عنه بما خلقوا وملكوا، أما إن كان المعنى المراد: لاتخذوا سبيلا إلى عبادته والقيام بواجب حقه رجاء رحمته وخوف عقابه، فالآية في توحيد الإلهية، كقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾ [الإسراء:٥٧] .

وقد استخلص بعض العلماء من ذلك دليلا سموه دليل التمانع، وجعلوا جل همهم إثبات توحيد الربوبية به، قالوا: لو جاز أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا، بأن يريد أحدهما وجود شيء، ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد سكونه، وعند ذلك إما أن ينفذ مرادهما، وذلك محال لما يلزمه من الجمع بين الضدين، وإما أن لا ينفذ مراد كل منهما، وذلك محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر، فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون رباً.

ولو أن هؤلاء عنوا بتوحيد الإلهية، وصرفوا همتهم إلى بيان تفاصيله، وأجملوا القول في توحيد الربوبية والاستدلال عليه اكتفاء بشهادة الفطرة وإقرار العبادة به، وعلمه بالضرورة،

وجعلوا البحث فيه وسيلة إلى توحيد العبادة ودليلا عليه، لكانوا بذلك قد سلكوا طريقة القرآن ومنهج الرسل عليهم الصلاة والسلام»[1].

فعلى الوجهين ليس في هذه الآية دليل للكاتب بل هما عليه! فإن أريد بها المعنى الأول؛ ففيها بيان لحقيقة دين المشركين واعتقادهم في آلهتهم بما هو متقرر عندهم بأنهم خلق من خلق الله حالهم كحالكم يبتغون إلى ذي العرش سبيلاً أيهم أقرب.

وإن أريد بها المعنى الثاني؛ فهو إفحام بقصور آلهتهم عن مرتبة الألوهية لظهور قصورها عن رتبة الربوبية **التي يقرون بها لما يعلمون** بأنه لو كان هناك ربٌ آخر لفسد نظام الكون، وذهب كلّ إله بما خلق! وابتغى كلّ إله إلى الآخر سبيلاً ليغالبه على ملكه كحال ملوك البشر.

تم التعليق على ما في مقال الكاتب المذكور على وجه الإيجاز والاختصار، يوم الاثنين ١٨ من شهر شعبان سنة ١٤٣٥هـ، والله ولي التوفيق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

[1] "فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي"(ص٢٢١- ٢٢٢).